

٢٢٢
الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

SOCIÉTÉ ROYALE D'ÉTUDES HISTORIQUES

المجلة التاريخية المصرية

تصدرها الجمعية مرتين في السنة. ويشرف على تحريرها
السيد محمد شفيق غربال نائب رئيس الجمعية ووكيل وزارة المعارف
والدكتور محمد مصطفى زيادة عضو مجلس إدارة الجمعية وأستاذ
تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

مايو
سنة ١٩٥٠

المجلد الثالث
العدد الأول

تطلب المجلة من الجمعية ومن المكتبات الرئيسية
وتمن العدد ٣٥٠ ملياً

السيد القمبیطور

وعلاقاته بالمسلمين

كما يؤثر عن عبد الرحمن الناصر أنه : « وُجد بخطه تاريخ قال فيه : أيام السرور التي صفت لى دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، فعُدَّت تلك الأيام فوجد فيها أربعة عشر يوماً » .^(١) وهذه الملاحظة تصلح أن تكون رمزاً على تاريخ الأندلس الإسلامى كله : فقد دخل الإسلام شبه الجزيرة الإيبيرية على أوائل القرن الثامن الميلادى (أواخر الأول الهجرى) ، ولم يزل أمره منها إلا فى أواخر القرن الخامس عشر (التاسع الهجرى) ، فإذا أردنا حصر فترات الهدوء والاستقرار والسلام الشامل والرخاء الصحيح ، لم تبلغ فى مجموعها مائة عام متفرقة بين عهود عبد الرحمن الداخل وابنه هشام وعبد الرحمن الأوسط والناصر والحكم المستنصر وهشام المؤيد . ولم يستطع أولئك الأمراء والخلفاء ورجالهم إقرار الأمور خلال تلك الفترات القصيرة إلا بجهـد شديد وكفايات نادرة ، لأن إسبانيا بلد وعـر عسير الحكم ، وأهله ذوو جلد وعناد وميل متصل إلى الفردية والاستقلال بعضهم عن بعض . وقد ركب العرب مركباً صعباً بدخولهم إسبانيا ، وتكلفوا فى إقامة أمرهم ونشر دينهم ولغتهم فيها جهوداً تبلغ أضعاف ما بذلوه فى إخضاع أى قطر آخر مما فتحوه ، عدا المغرب : كان لا بد لهم من جيش قوى قائم على الأهبة للقضاء على كل نزعة ثورية أو انفصالية ، ولم تكن لهم مندوحة عن موالاة الغزوات على الممالك والإمارات النصرانية فى الشمال ، فإذا غفلت أعينهم بعض الشيء أو تراخت يدهم بضع سنوات انتقضت النواحي وتوالت الثوار فى المعازل والحصون وأقلت الزمام من أيديهم . وزاد فى عسر هذه المهمة أن الشعب الذى كان على أولئك الأمراء والخلفاء حكمه كان شعباً متمرداً بطبعه ، عسير الانقياد

(١) ابن عذارى : « البيان المغرب » (طبعة دوزى) ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

بمزاجه المركب من عناصر ثلاثة كلها عنيد عسير : أولها الإيبيريون الرومان بما جبلت عليه نفوسهم من الصبر والشدة ، وثانيها البربر بما في طباعهم من العناد والشجاعة والاستهانة بالدماء^(١) ، وثالثها العرب بما جبلوا عليه من الأنفة والتهور وكراهة السيادة والنظام وما عرف فيهم من الفردية الشديدة . ولو أننا تتبعنا الجهود المضنية التي بذلها أمراء كعبد الرحمن الداخل والحكم الربضى وعبد الله ابن محمد لإخضاع العصاة والناظرين ، لتبيننا أن أمراء البيت الأموى وخلفاءه كانوا في الواقع كالباقض على الجمر ، ولتبيننا كذلك أن الاستقرار الذي ساد عصورهم كان حالة غير طبيعية في إسبانيا ، أما الحالة الطبيعية للتاريخ الإسباني عامة - في عهود المسلمين وغير المسلمين - فهي التفرق واستبداد كل واحد بناحيته ، كما حدث في عهد الطوائف . وهذا العصر الأخير - على ما ساد من فوضى وتفرق - هو الحالة الطبيعية المميزة للتاريخ الإسباني عن غيره من تواريخ الشعوب .

واعتمد أمراء الأندلس أول الأمر على أجناد العرب والبربر ، ثم فرضوا على النواحي البعوث^(٢) ، واستخدموا الصقالبة ، ثم قلب المنصور نظام الجيش كله واستقدم جماعات ضخمة من بربر إفريقيا ، فنفر منهم الأندلسيون نفوراً شديداً^(٣) ، فلم تكد حياته تنتهى حتى بدأ الضرام يتهدى من مُخلل الرماد ، وما هي إلا سنوات حتى وقعت الفتنة الكبرى وانقسم جيش البلاد ثلاث طوائف هي العرب والبربر والصقالبة^(٤) ، واستقل كل وال بناحيته وانحازت إليه من الجيش قطعة من بني جنسه : استقل بنو عباد بناحية إشبيلية ، وجماعات البربر بنواحي الجنوب في كور البيرة (غرناطة) ورُنْدَة

(١) انظر عن ذلك كتاب : ORTEGA Y GASSET, *La Espana invertebrada*, Madrid.

(٢) ابن عذارى : « البيان » ج ٢ ، ص ١١١ - ١١٢ .
ابن القوطية : « افتتاح » ، ص ١٠٧ .

(٣) ابن خلدون : « العبر » ، ج ٢ ، ص ٥٥٦ و ج ٣ ، ص ٢٢٧ .
ابن عذارى : « البيان » ، ج ١ ، ص ٢٥٠ و ج ٢ ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ و ٢٩٨ - ٢٩٩ .
التويرى : « نهاية الأرب » (طبعة جيسار ريمبرو ، مدريد ١٩١٧) ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

DOZY, *Musulmans d'Espagne*, II, pp. 230-231.

وتأكّرنا والجزيرة الخضراء ، ولجأ الصقلية العامريون إلى شرق الأندلس واعتصموا في إقليمي مرسية ، وبلنسية ومنها امتدوا فيما بعد إلى الجزائر الشرقية (البليار) ، أما ناحية طليطلة وبطليوس فقد انفرد بالأمر فيهما أسرتان من قدماء بربر الأندلس الذين أخذوا طابعاً أندلسياً بطول المقام وهما أسرتا بني ذى النون وبني الأفطس ، واستقل بيت بني هود بإقليم الثغر الأعلى وهو سرقسطة وما حولها . وابتدر الفرصة نفر من صغار القواد اعتصموا في نواح صغيرة متفرقة هنا وهناك ، أهمهم معن بن صمادح الذي انفرد بالمرية (١) .

زوال خلافة قرطبة وآثاره :

وهكذا تفرقت وحدة الأندلس الإسلامى في سنوات قليلة ، وفشلت كل المحاولات التى بذلت لإعادة الوحدة وإقامة صرح الخلافة الأموية من جديد . وقد شهدت قرطبة خلال السنوات التى أعقبت وقوع الفتنة خلفاء صغاراً اعتمد بعضهم على البربر وبعضهم على الأندلسيين ، وحاول كل منهم إقرار الأمر لنفسه دون جدوى ، وانتهى الأمر بأن أعلن أبو الحزم بن جهور في نوفمبر سنة ١٠٣٠ نهاية الخلافة في قرطبة ، وخرج هشام المعتد آخر خلفاء ذلك البيت الأموى المجيد ناجياً بنفسه إلى لاردة ، حيث أقام خاملاً في ظل سليمان بن هود صاحب سرقسطة (٢) .

وقد وقعت هذه المأساة والأندلس الإسلامى في أوج تطوره الاجتماعى والثقافى ، فقد كانت جهود البيت المروانى في توحيد عناصر السكان قد بدأت تؤتى ثمرها من منتصف حكم الناصر ، أى من بداية الثلث الثانى من القرن الرابع الهجرى (التاسع الميلادى) ، فظهر الشعب الأندلسى الفريد بصفاته الخاصة المميزة ، وكان مزاجاً من العرب والبربر والإيبيريين الرومان

(١) عبد الواحد المراكشى : « المغرب » ، (القاهرة ، ١٩١٤) ، ص ٤٠ وما يليها .

ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، (طبعة برونسسال ، رباط ، ١٩٣٤) ص ١٦٧ وما يليها .

دق ما كتب حديثاً عن هذه الفترة :

ANTONIO PRIETO Y VIVES, *Los Reyes de Taifas*, Madrid, 1926.

(٢) ابن حيان ، برواية ابن عذارى ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .

وانظر أيضاً : ابن بسام : « الذخيرة » ، قسم ١ ج ٢ ، ص ١١٤ - ١١٦ .

والقوط ، يتكلم لغة هي خليط من العربية والبربرية والرومانية^(١) ويعتز بنفسه وبأندلسيته على من عداه من الشعوب ، ويأنف من هذه السيادة الفكرية التي كان المشرق يحاول بسطها عليه^(٢) ، ويأخذ في الشعر والنثر اتجاهات جديدة لم يعرفها المشرق ، من صنع الموشحات والأزجال^(٣) وذلك النثر المرسل الفياض بالصدق والجمال الذي نقرؤه عند عبد الملك بن شهيد وأبي محمد على بن حزم وحيان بن خلف بن حيان ، واختلط في مدائن الأندلس وأريافه المسلمون والنصارى واليهود على قدم واحدة ، وتداخلت العلاقات بينهم ، وامتزج الشرق والغرب في هذه البيئة الأوربية . وخفت حدة الخلاف بين إسبانيا النصرانية في الشمال وإسبانيا النصرانية في الوسط والجنوب والشرق ، ووقف الأندلس كله على أبواب عصر نستطيع أن نشبهه بعصر الاستنارة (Die Aufklärung) الذي لم تعرفه أوروبا إلا بعد ذلك بقرون ، ثم جاءت هذه الفتنة فأوقفت ذلك كله دفعة واحدة وقضت على الآمال التي علقت عليه ، ووقف أهل إسبانيا جميعاً مسلمين ونصارى ينتظرون أن تتجلى الفتنة الطويلة التي أخذت عليهم كل طريق ، وتنكر أمراء الطوائف لكل المثل العليا التي قضى أمراء المروانيين قروناً في تكوينها ، فعملوا على هدم الوحدة والخلافة وفرطوا في هذه العصبية الأندلسية التي كادت أن تكون قومية صريحة في أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، ومدوا أيديهم يطلبون العون من الشرق والغرب ، وفقدوا هذه العزة القومية ، وأضاعوا على إسبانيا فرصة سبق العالم كله إلى النهضة الكبرى .

وكان زوال الخلافة الأموية وتفرق أمر الأندلس الإسلامي داعيين لسلسلة من التطورات في إسبانيا النصرانية لا تقل مدى عن تلك التي شهدناها في الأندلس الإسلامي . ذلك أن تفرق أمور المسلمين ووقوع الفتن بينهم بعث النشاط والآمال في نفوس ملوك قشتالة وليون وأرجون وأكتناد برشلونة ،

JULIAN RIBERA, *Disertaciones y opusculos*, (Madrid 1928) 1, pp. 127-128. (١)

H. MONÉS, *Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue* (Le Caire, 1948) pp. 108 sqq. (٢)

A. GONZALEZ PALENCIA, *Historia de la literatura arabigo - espanola* (٣)
(2. ed. Madrid, 1945) pp. 113 sqq.

وانفتحت أمام كل منهم السبل لتوسيع سلطانه على حساب الخصم المتهلم ، وكان على عرش قشتالة وليون وحليقية وأشتوريس ملك قوى محارب من ذلك الطراز الصلب الطموح الذى عرفته إسبانيا فى ذلك العصر وعصر الملوك الكاثوليكين الذى تلاه ، وهو فرناندو الأول ، فبادر ينتهز الفرصة ، واندفع نحو الجنوب الغربى والجنوب الشرق واستولى على سموره Zamora وبازو Viseu وقلمرية Coimbra . وهدد بقواته إمارات الأندلس الأربع الكبرى التى كانت أشبه بالدرع تحمى ما يليها من الجنوب ، وهى : سرقسطة وطليلة وبطليوس وإشبيلية ، وما زال ينوش بلادها حتى اضطر طلييلة وبطليوس إلى شراء سلامتهما بجزية سنوية تؤديانها إليه (١) .

ثم مات فرناندو فقسمت المملكة بين أبنائه ، ودارت الحرب بينهم على العادة حتى استطاع واحد منهم ، وهو سانشو الملقب بالكبير (١٠٠٠ - ١٠٣٥ Sancho el Mayor) ، أن يستولى على ما بيد إخوته ويعيد وحدة الدولة ، وأصبح ملك قشتالة وليون وحليقية بعد حروب طويلة ، ثم تجرد لحرب المسلمين والفوز بقطع من أراضيهم التى لم تكن لتجد من يدافع عنها (٢) .

وفى أثناء هذه الحروب الطويلة التى دارت بين ملوك إسبانيا النصرانية بعضهم البعض وبينهم وبين المسلمين تربت فى صفوف جيوشهم طائفة من الفرسان ذوى قدرة حربية وصبر وشجاعة وطموح ، وأتيحت لهم الفرصة للتجربة والمران والضراوة ، وستحمل هذه الطائفة عبء الكفاح مع المسلمين إلى جانب ملوكها . والسيد الكنييطور - مدار حديثنا فى هذا البحث - واحد من ذلك الجيل العففى المقاتل من فرسان إسبانيا النصرانية الذى ملأ أرض الجزيرة خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى بأعمال الشجاعة والكفاح والتخريب والدمار (٣) .

ANTONIO BALLESTEROS Y BERETTA, *Historia de Espana* (Barcelona, (١)

1920) II. pp. 220 sqq.

R. MENENDEZ PIDAL, *La Espana del Cid* (1. ed. Madrid 1929) pp. (٢)

117-121.

(٣) لم تعرف إسبانيا النصرانية نظام الفرسان إلا فى زمن متأخر عن زمن قيامه بغيرها من بلاد غرب أوربا ، وقد درج ملوكها على اختيار فرسانهم من بين أولاد المزارعين وصغار =

رودريجو دياز د بيبار :

والاسم الحقيقي للسيد هو Rodrigo Diaz de Vivar لأنه ولد في قرية Vivar على تسعة كيلو مترات شمالي برغش ، والمراجع العربية تسميه « لذريق » « ورذريق » أو « الطاغية رذريق » . وكان أبوه Diego Lainez أو Diaz من أصل عريق ، وكان من رجال فرناندو الأول وكان يملك إقطاعيات على نهر دويره . ويُظن أن لذريق ولد في سنة ١٠٤٥ ، أي بعد زوال الخلافة القرطبية بخمس عشرة سنة (١) .

ولما كان ديجو لاينيد من أفضال الملك فرناندو فقد دخل ابنه رذريق في خدمة البيت المالكي على عادة أبناء الأفضال في نظم الأقطاع ، وضمه الأمير سانشو بن فرناندو إليه ورسمه فارساً في سنة ١٠٦٣ ، وأشركه معه في الحروب التي قامت بين قشتالة وجيرانها في ذلك الحين . وكان ألد أعدائها راميرو - أو رُذمير - ملك أرغون ، وكان قد جعل دأبه منهاجة إمارة

= الناس ، لا من بين أبناء النبلاء كما كان الحال في غالة مثلاً . غير أنه تكونت مع الزمن طبقة فرسان مرتبطة بجواشي الملوك كان أفرادها يتربون على قواعد الفروسية المعروفة ، ومع ذلك فقد ظل الملوك يدخلون بين فرسانهم النجباء من أولاد الأصاغر ، وكان الفرسان النبلاء يحتقروهم ويمادونهم . وكان السيد من أبناء الأصاغر ، فلم يكن أبوه ديجو لاينيد نبيلًا ، ولهذا عاداه الفرسان النبلاء وتحزبوا عليه ، وكان لهذا أثر بعيد في تاريخه كما سنرى . وكان لكل فارس ردة من أتباعه تسمى la mesnada يدخل فيها الشبان ، الذين يسمون يوماً ما فرساناً ، والخدم criados Cf. SANCHEZ Albornoze, *Estampas de la vida diaria en Léon hace mil anos*.

وعند ما قرب الملك سانشو لذريق وأعلى شأنه أنكر الفرسان النبلاء ذلك وانضموا إلى أخيه ألفونس الذي سيخلفه على العرش باسم ألفونس السادس ، فجعلهم بطانته ، وأوغروا قلبه على لذريق فكانت العداوة التي ستتكمّل عنها بين الاثنين .

ومن أكبر أولئك الفرسان النبلاء الذين سيعادون لذريق وسيكون لهم أثر في تاريخه - وفي تاريخ الحرب بين المسلمين والنصارى في ذلك العصر كله - « بنو غومس » ، وهم أسرة قشتالية قديمة كانت تملك بلاد كاريون Carrion وصدلانية Saldana وليبانه Liébana وسموره Zamora وكانت قد استعربت أيام المسلمين ودخلت في ولاء بني أمية ، ومن هنا كان اسمها بني غومس ، واحتفظت باسمها بعد أن انضمت إلى ملوك قشتالة بعد سقوط الخلافة ، فصارت تسمى في النصوص الإسبانية Los Beni Gomez أو Vanigomez ، وأكبر رجالها في عهد السيد Gonzalo Ansures

R. MENENDEZ PIDAL, *op. cit.* 1, pp. 189-190.

انظر :

MENENDEZ PIDAL, *op. cit.* pp. 127-129.

(١)

سرقسطة ، وكانت من أحلاف ملوك قشتالة وليون ، وكانت من قبل تدفع الجزية لأرغون ثم تحولت إلى حلف قشتالة ، فظل رذمير الأرغوني يتحين الفرص لمهاجمة بلادها الشمالية - لاردة ، وشقة ، وتطيلة - فلما كانت سنة ١٠٦٣ سار فرناندو نحو إشبيلية ، فهزم رذمير الفرصة وهاجم سرقسطة ، فعجل فرناندو بإرسال ابنه سانشو لغوثها ، فسار ومعه رذريق . وعند بلدة Graus - أو Grodos دارت رحى معركة حامية بين قوات المقتدر أحمد بن هود والقشتاليين - وفيهم السيد - من ناحية وبين راميرو صاحب أرغون من ناحية أخرى ، وانصر القشتاليون انتصاراً كاملاً حتى ليقال إن راميرو قتل في المعركة . وهكذا نرى أن رذريق حارب إلى جانب المسلمين في أول معركة يذكرها له التاريخ (١) .

وبعد ذلك بعامين (١٠٦٥) توفي فرناندو الأول ملك قشتالة وليون بعد أن قسم أملاكه بين أبنائه الثلاثة : سانشو وهو صاحب السيد الذي ذكرناه وقد أعطاه مملكة قشتالة ، وألفونسو سادس ملوك ليون المسمين بهذا الاسم ، وغرسية وقد أعطاه جليقية ، أما بتاه Urraca وإلبيرة Elivra فقد أعطاهما إقطاعيات (٢) .

ظهور أمر رذريق :

وبدأت الحرب بين الإخوة بعد موت أبيهم مباشرة ، واستطاع سانشو أن يهزم أخويه غرسية وألفونسو ويجردهما من أملاكهما . وكانت الحرب بين سانشو وألفونسو عنيفة حامية انتهت بهزيمة الأخير ووقوعه أسيراً بيد أخيه عند Golpejera في سنة ١٠٧١ . وكان لرذريق في هذه المعركة دور عظيم ، بل كان هو صاحب الفضل في النصر ، فكان هذا أول الحصومة الطويلة بينه وبين ألفونسو (٣) ، وهي خصومة ستدور حولها حوادث السنوات التالية كلها . وقد قبل سانشو أن يطلق سراح أخيه ألفونسو على

R. M. PIDAL : Op. cit. pp. 143-146.

(١)

” ” ” : Op. cit. pp. 154-155.

(٢)

(٣) راجع عن دور السيد في هذه المعركة :

DOZY, *Recherches*, II, p. 105-106.

شريطة أن يخرج من بلاده ، فاختار أن يقيم عند المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، واستقبله هذا الأخير استقبالا حسناً ، وعاش عنده مكرماً حتى سنة ١٠٧٢ . وخلال هاتين السنتين اللتين قضاهما ألفونس في هذا البلد الإسلامى ، ألم بكل أحوال البلد وعرف ما كان يتنابه من عوامل الضعف ، وسيستفيع بهذه المعلومات عندما يصير إليه عرش قشتالة وليون كما سترى ، إذ سيجعل دأبه الاستيلاء على طليطلة مكافأة لأهلها على ما آووه (١) .

وعلا نجم رذريق فى بلاط قشتالة ، وأقامه سانشو « فارس » الجيش El Alferez ، (٢) أى القائد العام (٣) ، وظهرت فروسيته فى مبارزة عنيفة مع فارس نبرى ، وقد قيل إن انتصاره فى هذه المبارزة كان السبب فى تلقيبه بالـ campeador الذى عربه المسلمون إلى الكنييطور أو القمبيطور ، وحاول دوزى أن يفسر لفظ « كمبيادور » بأنه البطل Champion ، ولكننا وجدنا فى الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى التفسير الصحيح للفظ ، إذ قال : « القنييطور ومعناه صاحب الفحص واسمه لذريق » ، فعرفنا أن Campeador من campus وهو الفحص ، ومقابل اللفظ فى اللاتينية campidoctus ومعناه قائد الغارات فى بلاد الأعداء (٤) .

العداء بين رذريق وألفونسو السادس (ابن رُدْمير) :

وفى سنة ١٠٧٢ قُتل سانشو الثانى عند أسوار سموره Zamora ، ولم يجد رجال قشتالة وليون بدا من أن يستدعوا أخاه ألفونس من منفاه ويولوه

(١) LÉVI - PROVENÇAL, *Alphonse VI et la prise de Tolède*. pp. 117-118

(٢) Alferez لفظ إسباني من أصل عربى هو « الفارس » وكان يطلق على حامل لواء الملك وقائد قواته ، ويسمى فى اللاتينية armiger . وكانت العادة أن يكون للمملكة فارس واحد ، أى أن سانشو جعل رذريق فوق فرسان قشتالة وليون بجيماً ، وكان ذلك أيضاً من أسباب كراهة فرسان قشتالة لرذريق .

(٣) LÉVI - PROVENÇAL, *Le Cid de l'histoire*.

(٤) راجع مناقشة دوزى لأصل هذا اللفظ فى :

DOZY, *Recherches*, II. pp. 56 sqq.

وقد كان ماسديو قد ذهب إلى أن لفظ كمبيادور فى إسبانية القرن الثانى عشر كان يحمل معنى محطاً ، فأثبت له دوزى (ص ٥٧) خطأ رأيه ، وأورد له آياتاً من شعر Gonzalo de Berceo =

على العرش . وكان رذريق كبير رجال الدولة ، ولم يكن له بد من استدعاء خصمه ألفونس والدخول في خدمته ، وقد فعل ذلك راعماً ، لأن القانون كان يقضى به . وقد أراد رذريق أن يشعر ألفونس بسلطانه قبل أن يلي العرش ، فاشتراط أن يحلف يميناً ببراءته من الاشتراك في تدبير مقتل أخيه (١) ، فأقسم ألفونس بين يديه في جمع حافل من رجال مملكة ليون وقشتالة ، مما زاده نفوراً من رذريق . ولهذا فإنه لم يكذب يستقر على عرش قشتالة وليون في سنة ١٠٧٢ حتى عزل رذريق من قيادة الجيش وولى مكانه Garcia Ordonez الذى تسميه المراجع العربية « غرسية ذا الفم المنبوز » ،

= في قصيدته المسماة : Vita de Santo Domingo de Silos التى ألقت في سنة ١٢٢٠ يفهم منها أن لفظ كيبادور كان معناه الفارس النبيل ، وهذه الأبيات هي :

El Rey Don Garcia de Nagera Senmor,

Fijo del Rey Don Sancho, el que dicen Mayor,

Un firone caballero, noble campeador,

Mas para sant Millan podrie ser meior.

ثم مضى بعد ذلك يستقصى أصل اللفظ في اللغات الجرمانية ، وربطه بالأصل التيوتوني camp و أوجل في ذلك إينالا غريباً ، وربطه بلفظ champion الفرنسى و champion البروثسى و champione الإيطالى (ص ٥٨ - ٥٩) . أما متنذ بيدال ، فقد ذهب - على عادته في تفخيم السيد - يلتبس أصل اللفظ في اللغة اللاتينية ، واستند إلى أبيات وردت في أنشودة لاتينية وضعت في مدح السيد تقول :

"Hoc fuit primum singulare bellum

Cum adolescens devicit Navarrum

hinc campi-doctor dictus est majorum ore virorum".

(راجع ص ١٧٥) من كتابه المشار إليه .

وقد حل نص ابن عذارى الذى ذكرناه (انظر البيان المغرب لابن عذارى ج ٣ ، طبعة ليثي پروفنسال ، باريس ١٩٣٠ ، ص ٣٠٥) هذا الإشكال . ولكن متنذ بيدال رفض الأخذ به على وضوحه ، وظل يتمسك إلى الآن بالأصل اللاتينى لقب السيد .

ويذهب التاريخ اللاتينى للسيد المسمى Historia Roderici إلى أن الفارس الذى غلبه السيد واستحق بقلبه إياه لقب القمبيطور كان فارساً مسلماً من أهل « مدينة سالم » يسمى الحارث Hariz من رجال المقتدر بن هود .

Cf. : Menéndez Pidal, op. cit. pp. 175-176.

(١) أقسم ألفونسو اليمين على براءته من تدبير قتل أخيه في كنيسة سانتا جاديا Santa Gadea على مقربة من برغش في نوفمبر أو ديسمبر ١٠٧٢ ، ويحيط القصص الشعبى =

وقد أحفظ ذلك رذريق وبدأت بينه وبين غرسية عداوة ستدوم حتى موت غرسية هذا .

الخلاف بين القشتاليين والليونيين :

وكان اتحاد ليون وقشتالة تحت تاج واحد أمراً جديداً على الإسبان إذ ذاك ، وكانت عرى ذلك الاتحاد واهية لا يحول بينه وبين الانتشار إلا شخص الملك الجالس على العرش . وكانت المملكة أول الأمر في ليون ، وكان أصحابها أكبر ملوك إسبانيا النصرانية ، ولم تكن قشتالة إلا كونتية صغيرة إلى جوارها ، فلما قسم فرناندو الأول أملاكه بين أبنائه أعطى كونتية قشتالة لسانشو ، فضم إليه فرسانها - وفيهم رذريق (وهو قشتالي من فيفار كما قلنا) - فلما صار إلى العرش أصبح فرسانه القشتاليون أعلى من فرسان ليون ونبلاتها مرتبة ، فنفر من ذلك أولئك الأخيرون ، وأخذوا يناوئون سانشو ، وتولى زعامتهم ألفونس أخو سانشو ، وما زال العداء بين الجانبين حتى وقعت الحرب وانتصر القشتاليون على الليونيين في معركة « جولبيخار » التي ذكرناها ، ونفى ألفونس إلى طليطلة ، فقم بذلك انتصار القشتاليين إلى حين .

وكانت لسانشو وألفونس أختان ورثت كل منهما عن أبيها كونتية ، وأهم الأختين هنا « أوراقة Urraca » وكان أبوها أعطاهام سمورة ، وكانت شديدة الميل إلى أخيها ألفونس ، فأزرتة على أخيه سانشو وآوته عندها بعد انهزامه ، ثم شفعت له عند أخيه حتى أخرجته من السجن وسمح له بالمسير إلى طليطلة منفياً . وتزعمت أوراقة بعد ذلك حزب الليونيين الكاره لأخيها الملك سانشو زعيم القشتاليين (وفيهم رذريق) ، وما زال الأمر يسوء بينهما حتى قرر سانشو الاستيلاء على سمورة من أخته ، فسار إليها وحاصرها ، فلذا هو على الحصار إذ أصابه سهم أصابه في السابع من أكتوبر ١٠٧٢ م . ولا شك أن لأوراقة يداً في قتله . وكانت نتيجة ذلك أن عاد ألفونس إلى

= الإسباني هذا الحادث بحشد من الأساطير ، ومن ذلك أن السيد قال لألفونسو : « وإذا كنت كاذباً في يمينك فسيميتك الله صريعاً على يد واحد من أتباعك يخونك كما خان فيليدو أدولفو أخاك الملك سانشو وقتله ! » فقال ألفونسو وفرسانه الاثنا عشر : « آمين ! »

ليون وتوج ملكاً على قشتالة وليون كما رأينا ، فانتصر حزب الليونيين من جديد ، وكان على رذريق بعد ذلك أن يقود جماعة القشتاليين الغاضبين على ألفونسو^(١) .

ومن الظريف أن بعض مؤرخي إسبانيا النصرانية كانوا يدهشون من هذا الميل المفرط الذي كانت أوراكة تبديه نحو أخيها ألفونسو ، حتى عثر ليثي پروئنسال أخيراً على نص عربي يؤكد وجود علاقة مربية بين الاثنين^(٢) ، فانكشفت بذلك ناحية غامضة من فوحي تاريخ إسبانيا النصرانية ، وتبين أن ما كان المؤرخون يزعّمونه من أن نصارى الإِسبان كانوا يمتازون على مسلميهم من أهل ممالك الطوائف بسلامة الخلق لا يقوم على أساس ، إذا أن ملوك الطوائف أسرفوا على أنفسهم بالفعل في كل ميدان ، ولكن إسرافهم لم يبلغ مبلغ ألفونسو وأخته .

ولم ينصرف رذريق من بلاط ألفونسو بل ظل في خدمته ، ويبدو أن الملك كان راضياً عنه ، لأنه زوجه في يوليو ١٠٧٤ من إحدى بنات خالاته وهي Jimena ابنة Diego Rodriguez كُنْد أبيض Oviedo .

وبولاية ألفونسو السادس عرش قشتالة وليون يبدأ تحول جديد حاسم في تاريخ إسبانيا النصرانية ، فقد كانت تعيش إلى الآن منفصلة تماماً عن كنيسة روما من الناحية السياسية ، وكانت العبادة في كنائسها تجري على

Prim. Cron. Gen. pp. 503a, sqq.

Dozy, Recherches, II. p. 106

R. Menéndez Pidal, op. cit. pp. 195 sqq.

(١)

والمراجع المطعاة في هذا المرجع الأخير .
(٢) هذا النص لابن الصيرفي الفَرطاطي المتوفى في أوريوله سنة ١١٦١ م . وكان كاتباً للأمير أبي محمد بن تاشفين ، وهو : ويذكر أن أذفوش بن فردلند - لعنه الله ! - زنى بأخته أراكة ، فجمع بين النصرانية والمجوسية ، ثم طلب إلى أحبار دينه المغفرة بما وافق ، فحملوه على قصد الكنائس الفاضلة والتعبد ، أخزاهم الله ولعنهم ! » . هذا وقد كان الراهب خوان خيل السموري Juan Jil de Zamora قد ذكر في كتابه De praeconis civitatis Numantinae (= مدائح بلدة سمورة) قصة ألفونسو السادس وأخته أراكة وذكر أنه تزوجها بالفعل بشهادة نفر من نبلاء مملكته !

Cf. : Lévi-Provençal y R. Menéndez Pidal, Alfonso VI y su hermana Urraca. - Al-Andalus XIII (1948) fasc. 1. pp. 157-167.

طقوس محلية إسبانية عرفت بالقوطية أو المستعربية أو الطليطلية ، فلما جاء ألفونسو - وكان متزوجاً من أميرة فرنسية هي Constance ابنة Robert de Bourgogne - انفتح باب الصلات مع غرب أوروبا واليابوية وبدأت المراسلات بين ألفونسو والبابا جريجورى السابع ، وانتهت بقبول ألفونسو السادس استبدال الطقوس المستعربية بالطقوس الرومانية ، وفتح باب إسبانيا أمام رهبان دير كلونى ، فوفدت جماعات منهم إلى قشتالة وليون ، وبدأ هذا التيار الفرنسى الرومانى الذى سيكون بعيد الأثر فى عودة إسبانيا النصرانية إلى محيط الحضارة الغربية بعد طول انفصال . وقد ذهب مؤرخ رذريق الأستاذ منذذ بيدال إلى أن رذريق كان من المعارضين فى هذه السياسة ، لأنها تنتقص من سيادة إسبانيا وتدخلها فى تبعية الكنيسة الرومانية^(١) .

* * *

رذريق فى خدمة بنى عباد :

وكانت الإمارات الإسلامية المصابقة لقشتالة وليون - وهى طليطلة وبطليوس وإشبيلية - تؤدى لها جزية سنوية ، وكانت العادة أن يندب الملك أحد كبار رجاله لقبضها ، فندب ألفونس رذريق للقيام بهذه المهمة فى أواخر سنة ١٠٧٩ ، فوفد إلى إشبيلية فى لمة من الفرسان على بلاط المعتمد ابن عباد .

وكانت الحصومة على أشدها فى ذلك الحين بين المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وممثل الطائفة العربية فى ذلك العصر الملىء بالفتن ، وبين عبد الله بن زيرى حفيد باديس بن حبوس آخر أمراء غرناطة من بيت بنى زيرى البرابر الصنهاجيين . وكان عبد الله - على ضعفه - يترغم حزب البربر ويستعين فى حرب بنى عباد بجنود من النصرارى يرسلهم إليه ملك ليون مقابل مال يؤديه إليه ، وقد عرفنا ذلك من كتاب فريد فى بابيه اسمه « التبيان عن الحادثة الكائنة على غرناطة » عثر عليه الأستاذ ليقى پروغنسال وتبين أنه مذكرات هذا الأمير عبد الله ، دونها بيده بعد خلعه ونفيه إلى أغات فى المغرب ، وقص فيه تاريخ

غرناطة في ذلك العصر المضطرب ، وحكى قصة ذلك البيت المغربي ، ودافع عن نفسه وأهله بعد ضياع ملكه في صراحة وصدق بإعلان من مذكراته تلك قطعة فريدة من الأدب ووثيقة طريفة من وثائق التاريخ^(١). وقد ذكر عبد الله في سياقها كيف أن خوفه من جاره ابن عباد هو الذى دفعه إلى الاستعانة بألفونسو وطلب المدد الحربى منه ، فأرسل إليه جماعة من الفرسان على رأسهم قائد جيوشه غرسية أوردونيذ Garcia Ordonez خصم رذريق اللدود .

وتشاء المصادفات أن تقع بين المعتمد وعبدالله في ذلك الحين مناقشات تكون نتيجتها خروج غرسية أوردونيذ على رأس قوة بربرية لمغاورة إشبيلية ، فعجل المعتمد بإرسال قوة على رأسها رذريق نفسه ، والتقى الفارسان القشتاليان الخصمان عند « قبره » يحارب كل منهما لحساب أمير مسلم . ودارت بينهما معركة حامية انهزم غرسية فيها انهزاماً قبيحاً ، ووقع في أسر خصمه ، وظل في قبضته ثلاثة أيام ، ثم أطلق سراحه فعاد مهيناً محققاً إلى برغش ليشكو إلى ملكه ألفونسو ما فعله به رذريق ، واجتهد في إيغار نفسه عليه ، مما أحق ألفونسو على تابعه . أما رذريق فقد عاد مظفراً إلى إشبيلية وقضى فيها ردىاً من الوقت ثم عاد إلى برغش سنة ١٠٨٠ ، فجعل الملك يحاسبه على تلك الأخطاء التى ارتكبها : فقد حارب من غير إذن ، واعتدى على بلاد في حماية متبوعة ، وأهان إخوانه وقتل منهم ، وقبض من ابن عباد لنفسه مالا ، وكلها مخالفات شديدة لتقاليد الأفصال مع متبوعيه . وبعد ذلك بقليل ارتكب رذريق مخالفة أخرى : فخرج دون إذن سيده وحارب جماعة من جند

(١) كان يقيم في بلاط الأمير عبد الله بن زيرى في ذلك الحين عدد من أكابر فرسان مملكة قشتالة وليون ، مثل غرسية أوردونيذ هذا وكان صاحب نخرة وفرتون سانشز Fortun Sanchez زوج إحدى أميرات نبره Navarra ولقب سانشز Lope Sanchez أخى فرتون المذكور ودييجو پريز Diego Pérez ، وكلهم من رؤساء الحزب الليونى في بلاط ليون وقشتالة . ولا ندرى السبب في اجتماعهم كلهم عند الأمير الصهاجى في ذلك الحين ، ويعمل منتدز پيدال ذلك بأن ألفونسو السادس بثم هناك ليرقبوا أعمال المعتمد صاحب إشبيلية بسبب اتساع رقعة دولته بعد استيلائه على قرطبة ومرسية وانتصاره على رامن كند برشلونة الملقب برأس الأسطب Ramon Capeza de Estopa ، وذلك تعليل غير مقنع .

Cf. : R.M. Pidal, op. cit. 1, p. 2 87.

طليطلة المسلمين عند غرماج Gormaz على نهر دُوَيْرُهُ ، فكانت نتيجة ذلك أن غضب ألفونسو عليه وقرر نفيه من بلاده ، وكان ذلك عقوبة قاسية ، إذ كان يتعين على الفصل المنفى ترك أملاكه وبلاده والخروج مع أتباعه ومحاولة كسب عيشه بالخدمة عند أى سيد آخر .

ردريق في خدمة بنى هود :

وهكذا خرج ردريق في سنة ١٠٨١ منفياً من بلاده لبحث له عن سيد جديد ، وكانت معه قطعة من أتباعه من الفرسان تبلغ نحو ٣٠٠ فارس . وعرض خدماته على كوند بَرَجَلُونِه Ramon Berenguer فرفض ، فيم شطر سرقسطة وعرض نفسه على أميرها يوسف بن هود الملقب بالمؤمن فقبله ، وبهذا يبدأ فصل جديد من حياة ذلك المغامر القشتالى ، فترة طويلة مليئة بالحوادث والمغامرات لحساب بنى هود تارة وحساب نفسه تارة أخرى ، وهذه الفترة هى التى جعلت منه فيما بعد بطل أساطير وملاحم .

وكانت أمور ممالك الطوائف تسير خلال هذه السنوات سيراً سيئاً ، فقد كانت الحروب على أشدها بين إشبيلية وغرناطة ، وكان المعتمد قد تمكن من الاستيلاء على مرسية فاتسعت رقعة بلاده اتساعاً أضعفها وقرب أيامها ، لأن هذا الذراع الذى امتد لها حتى وصل شرق الأندلس عند مرسية فرض عليها تبعات كثيرة فى الدفاع والحماية لم تكن تستطيع النهوض بها ، ثم إنه أوقعها فى منازعات مع جيران مرسية مثل أبى مروان بن عبد العزيز صاحب بلنسية وجاره أبى مروان بن رزين صاحب « السَهْلَة » ، وزادت مخاوف أصحاب غرناطة من البربر ، فازداد تهالك عبد الله بن زيرى على ألفونسو السادس ، وتخوف هذا الأخير من إشبيلية وأميرها ، واستقر عزمه على مهاجمتها والفراغ من أمرها جملة .

ولم تكن أحوال دولة بنى ذى النون أصحاب طليطلة بأحسن من ذلك : كان على رأسها يحيى بن إسماعيل بن ذى النون الملقب بالمأمون ، وكان مزاجاً غريباً من الفضيلة والرديلة، يتردد بين النشاط الواسع والحمول الغريب من حين إلى حين ، وكان شديد الانصراف إلى لذائذه حتى أسرف فى ذلك إسرافاً

أصبح مضرب المثل وحتى ألقى أموالاً جلييلة في مجالس أنسه وأعراسه ومبانيه^(١) ، غير أنه كان إلى جانب ذلك سياسياً قادراً استطاع السيطرة على كبار رجال أهل مملكته ، وخاصة بنى الحديدى ، وكانوا أسرة قوية تتولى الوزارة والحجابه فى دولة طليطلة . وكان المأمون يتودد إلى ألفونسو السادس ويداريه ، وكان هذا يبره ويذكر له يده عليه ، إذ آواه عندما كان منفيًا . وقد استفند المأمون قواه فى حرب جاره سليمان بن هود صاحب سرقسطة ، ولا زال كل منهما يغزو أرض الآخر ويعيث فيها ويستعين عليه بالنصارى حتى أشرفت الدولتان على الانهيار فيما بين ٤٣٥ و ٤٣٨ هـ / ١٠٤٣ - ١٠٤٦ .

وقد توفى المأمون بن ذى النون فى ذى القعدة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ وخلفه حفيد له يسمى يحيى أيضاً وتلقب بالقادر ، وكان آية فى الضعف وسوء الرأى وخطل السياسة : اختلف مع بنى الحديدى وساء مركزه فى طليطلة لأشهر من ولايته ، وتطلع ألفونسو للاستيلاء على هذا البلد العظيم وما حوله ، ونصب نفسه قياً على القادر ، وفرض عليه جزية ثقيلة اضطرت فى جمعها إلى اعتصار أهل طليطلة ، فكرهوه واشتد سخطهم عليه ، وبدأ بوضوح أن طليطلة صائرة إلى يد ألفونسو . وهكذا كان النصارى يزحفون إلى هذا المعقل الحصين وأمراء الطوائف لاهون عن الأمر ، منصرفون إلى ما شغلهم من المنافسات فيما بينهم ، وما استفند قواهم من النهم إلى لذات العيش والتهالك على المتاع^(٢) .

وقد أدى ردريق خلال السنوات الخمس الأولى من خدمته لبنى هود خدمات كبيرة لهم ، وحارب لحسابهم أرغون وبرجلونة ، وأفاد هو من ذلك فوائد عظيمة . فقد تحرر من قيود التبعية وأصبح فارساً حراً يعمل لحساب نفسه ، وأطلق لنفسه العنان فى شرق الأندلس كله ، فأتسعت ثروته وكثر

(١) انظر عن ذلك كله : ابن بسام : « الذخيرة » ، قسم ١ ، ج ١ ، ص ٢ .

ابن عذارى : « المغرب » ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ وما يليها .

ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ١٩٧ وما يليها .

(٢) انظر عن ذلك كله : ابن بسام : « الذخيرة » ، قسم ١ ، ج ١ ، ص ٢ .

ابن عذارى : « البيان المغرب » ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ وما يليها .

ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ١٩٧ وما يليها .

أتباعه بمن انجفل إليه من المغامرين والفرسان والزعار ما بين مسلمين ونصارى ، وأصبح أشبه ما يكون « بالكوندوتيري » الإيطاليين الذين كان الواحد منهم يرأس جماعة من الجند ويبيع خدماته لمن يدفع الثمن ، ويقضى حياته في الحرب والنهب والتخريب^(١) .

رذريق يتطلع إلى بلنسية :

وكانت بلنسية في ذلك الحين على حال من الضعف والعجز عن حماية نفسها أطمعت جيرانها فيها : كان قد انتزى بها رجل من أحفاد ابن أبي عامر يسمى عبد العزيز ، دخل في طاعة المأمون بن ذى النون ليحمي نفسه ، وخلفه ابنه أبو بكر مروان بن عبد العزيز ، فظل على طاعة طليطلة ، وزاد حال البلد سوءاً ، وطمع فيه بنو هود أصحاب سرقسطة ، وكان السيد أكبر قوادهم ، فتنبه لهذه الناحية وطمع في بلنسية^(٢) .

وعندما توفي المأمون بن ذى النون في ١١ ذى القعدة ٤٦٧ هـ . / ١٠٧٤م خلفه على طليطلة حفيده يحيى الملقب بالقادر ، وكان غاية في الضعف وقلة

(١) قال ابن بسام : « ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزى إلى وقتنا هذا على ثغر سرقسطة بعساكر أمير المسلمين تقبل من كل حذب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، أسد كلباً من أكلب الجلائقة يسمى برزريق ويدعى بالكنيطور ، وكان عقالا وداء عضالا ، له في الجزيرة وقائع ، وعلى طوائفها بضروب المكروهات اطلاع ومطالع . وكان بنو هود قديماً هم الذين أخرجوه من الحمول ، مستظهرين به على بغيهم الطويل وسعيهم المذموم المخذول ، وسلطوه على أقطار الجزيرة يضع قدمه على صفحات أنجادها ، ويركز علمه في أفلاذ أكبادها ، حتى غلظ أمره ، وعم أقاصيها وأدانها شره » .

انظر ص ٩ من نص ابن بسام الذي نشره دوزي في نهاية الجزء الثاني من أبحاثه .

Dozy : Recherches, II, p. 115

(٢)

وقد أثنى ابن الخطيب على ابن عبد العزيز بقوله : « أحد رجال الكمال بالأندلس ، وعين بلنسية التي بها تبصر ، ولسانها الذي تسهب به وتختصر . وكان طاغية الروم (يريد رذريق القمبيطور) المارس لرؤساء أهل الأندلس بكثرة مداخلتهم إياه في أمر بلادهم يقول إذا جرى ذكره : رجال الأندلس ثلاثة ، فيعد منهم ابن عبد العزيز . . . وكانت آثار عبد العزيز على الحملة جميلة ، وكان ثانياً لأبي الحزم بن جهور وشبيهاً له في الجهة الشرقية ، حل جهده على سداد ، وقام بها بحال من الاستبداد . . . وكانت وفاته ببلنسية في العشر الأواخر من جمادى الأخيرة سنة ١٠٦٤/٤٥٦ . ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ٢٣٣ .

الحيلة وسوء التدبير كما قلنا ، يذهب ابن الخطيب إلى أنه « كان يصاحبه مرض درن قلما ينعش منه »^(١). ووقعت النفرة بينه وبين كبار أهل طليطلة فلم يجد ما يؤيد به نفسه إلا الانقضاء الكامل في طاعة ألفونسو السادس ، وكان هذا يعرف طليطلة بحق المعرفة من أيام لجوئه إليها على ما قلنا ، فلما رأى هذا « القادر » العاجز بين يديه اجتهد في الاستيلاء على البلد .

سقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس :

وساءت حال القادر في طليطلة ، وأحس أن كبار أهلها لا يرضون عنه ، فاستعان بنفر من الأشرار عليهم ، ودبر مصرع كبيرهم أبي بكر بن الحديدى ، وظن أن الأمر خلا له بذلك ، ولكنه لم يلبث أن تبين أن أمره ازداد سوءاً ، فعجل بالهرب من البلد إلى حصن قَوْنِقَه Guenca تاركاً إياه ينعم من بناه . « وأقام أهل طليطلة بعده أياماً كالسائمة المهملّة ليس عليهم أمير ، ولا فيهم بالصواب مشير » ، كما يقول ابن الخطيب ، واستقر بهم الرأى على استقدام المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس ، فأقبل إلى البلد وأقام فيه أشهراً ريثما جمع ما عثر عليه من ذخائر بنى ذى النون ، ثم ترك طليطلة وعاد إلى بطليوس محملاً بالأسلاب ! وأتيحت للقادر الفرصة من جديد ، فعاد إلى طليطلة بمعاونة ألفونسو السادس وسام أهلها سوء العذاب ، « واستقر بها شر استقرار ، واقتضاه الطاغية الوعد ، وسلبه الله النصر والسعد ، وهلكت الذمم ، واستوصلت الرمم »^(٢).

وهكذا تمهد طريق طليطلة أمام ألفونسو السادس ، وكان يرقبها عن كثب وهو لا يشك في أنها صائرة إليه . فلما وجد هذا « القادر » أعجز من أن يستقر في البلد ، وأحس أن أحداً لن يمنعها منه إذا طلبها ، تقدم فطلب من القادر أن يتزل له عن طليطلة في مقابل تأييده إياه في الاستقرار على بلنسية ، وكانت داخلة — من الوجهة النظرية — في زمام طليطلة . وتم هذا الاتفاق المنكود بين الرجلين ، واستولى ألفونسو على قلب معاقل الأندلس

(١) نفس المصدر ، ص ٢٠٧ .

(٢) ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ٢٠٩ .

الإسلامي وأهم دويلاتها بآيسر مؤونة ، وامتدت رقعة مملكة ليون وقشتالة بهذه الخطوة من شمالي نهر تاجه إلى ضفاف الوادي الكبير . ومن أكبر دلائل هوان أمر مسلمي الأندلس في ذلك الحين ما ذكره ابن الخطيب من أن أهل طليطلة عارضوا في إسلام البلاد لألفونسو ، « فلما بلغ الصبر بهم مداه خرجوا إلى محلته ، (محلة ألفونسو) ، فأدخلوا المضرب الذي كان له ، بعد حجاب غليظ وإذلال كثير ، فألفوه يمسح عينيه من أثر النوم ، فقال لهم : « إلى متى تتخاذلون ، وماذا تصنعون ؟ » فقالوا : « لنا بغية ، وفي فلان وفلان أمنية ! » ، وسموا له جملة من ملوك الأندلس ، قتهافت وسخر بهم ، ودعا بإرسال من سموه ، فحضرها وكلهم يؤدي خضوع مرسله ، وينوب في لثم يده ، ويتوسل بهديته ، فخرجوا من عنده وقد سقط في أيديهم . ولثلاثة أيام من ذلك المجلس خلوا بينه وبين البلد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله (١) » ، وكان ذلك في منتصف المحرم ٤٧٨ هـ . / مايو ١٠٨٥ م (٢) .

وقد ارتجح الأندلس الإسلامي لهذه الكارثة رجة عنيفة ، وشعر الأندلسيون أن أمر الأندلس كله إلى ضياع ، فقد وصلت حدود قشتالة إلى أجواز قرطبة ، وأصبح بمصير بطليوس وإشبيلية في الميزان ، وأطل ألفونسو على شرق الأندلس كله ، وتجرد للقضاء على إمارات الطوائف كلها ، وريع أهل الأندلس وقال شاعرهم عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال :
يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفت (٣) ؟

الأندلسيون يستنجدون بالمرابطين :

وارتفعت الصيحة في الأندلس ، وتحرك الفقهاء يرجفون بهول المصيبة ، وينذرون بالخطر الداهم . وكان أمر المرابطين قد استقام في المغرب الأقصى

(١) ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ٢١٠ .

(٢) المقرئ : « نفح الطيب » ، ج ٢ ، ص ٦٧٣ .

(٣) المقرئ : « نفح الطيب » ، ج ٢ ، ص ٦٧٢ .

إذ ذاك ، فما زال الفقهاء يحضون أمراء الأندلس حتى جعلوهم يستنجدون
 بيوسف بن تاشفين ، فبادر بالعبور إلى الأندلس في ربيع سنة ١٠٨٦ (٥٤٧٨ هـ) ،
 وسار بجموعة للقاء ألفونس . وأدرك هذا خطورة الموقف ، فبعث يستدعي
 أنجاد فرسانه ويجمع جنوده ، واستدعى القوة التي كان قد رصدتها ببلنسية
 لحماية القادر بن ذى النون ، وكان يقودها فارس ليونى كبير يسمى Alvar
 Hanez تسميه المراجع العربية السبرهانس . وشعر القادر بعد انصراف حماته من
 النصرارى ألا حول له ولا طول ، وبعث يستنجد ببني هود . وهنا سنحت
 لردريق الفرصة التي كان ينتظرها منذ زمن طويل ، فاتفق مع المستعين بن
 هود على أن يستولى على بلنسية لحسابه على أن تكون الغنائم كلها له ، أى
 لردريق . وبدلاً من أن يسرع ردريق للوقوف إلى جنب إخوانه القشتاليين
 والايونيين في معركتهم الفاصلة مع المرابطين ، فضل أن يغتنم بلنسية . ودارت
 معركة « الزلاقة » الحاسمة في ١٥ رجب ٤٧٩ هـ . / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦
 بين قشتالة وليون من ناحية وجنود الأندلس والمرابطين من ناحية أخرى ، ومنى
 ألفونسو السادس بأقصى هزيمة عرفها في حياته ، وقتل من فرسانه آلاف ، وعاد إلى
 طليطلة مهيبض الجناح ، كل هذا وردريق متكالب على بلنسية وكأنه لا يمت
 إلى إخوانه النصرارى بسبب (١) .

بيد أن الكارثة هزت كيانه ، ولم يجد بداً من الإسراع إلى ملكه ومتبوعه
 القديم ألفونسو ، فذهب إليه وصالحه في أواخر ١٠٨٦ ، فقبله وأقامه على
 رأس قوة قشتالية تقوم بمغازاة المسلمين في شرق الأندلس ، فاختار أن يوجه
 نشاطه ناحية بلنسية وإقليمها . وهكذا عاد ردريق إلى هذا البلد المسكين
 يعمل لحساب سيد جديد هو ألفونسو السادس ، وهنا تبدأ فترة الأوج في
 حياة هذا القائد الذى لا يكل ولا يقنع .

(١) المراجع عن موقعة الزلاقة كثيرة ، انظرها في آخر مقال « الزلاقة » في دائرة المعارف
 الإسلامية بقلم ليونى پروفنسال ، وانظر :

C.F. Seybold, Die geographische Lage von Zallaka und Alarcos. Revue Hispanique, XV (1906), 647.

وأحيل القارىء إلى نص جديد مع بحث واف نشر في مجلة الأندلس :

E. Lévi - Provençal, E. Garcia Gomez, J. Oliver Asin : Novedades sobre la batalla
 llamada de al-Zallaka. Al-Andalus, XV (1950) fasc. 1, pp. 111-156.

ردريق مغامر يعمل لحسابه الخاص :

وهنا يبدو السيد في صورة مروعة حقاً ، فقد مضى ينتسف ماوصل إليه من بلاد شرق الأندلس في غير رحمة أو هوادة . ولم يقتصر على بلاد المسلمين بل تعداها إلى بلاد النصرى ، فأغار على نواحي إمارة برجلونة وأطلق جنوده فيها يحرقون ويخربون^(١) ، وخافه صغار أمراء المسلمين في هذه الناحية ، فدفع له سهلة^١ « بنى رزين » والبونت ومريبطر وشبُرْب والمنازة الجزية ، واتسعت ثروته وكثر جمعه ، ثم انقض على بلنسية وشدد الحصار حولها . وتسامع ألفونسو السادس بما يفعله هذا المارد في شرق الأندلس ، فأسرع بقواته ليسبقه إلى بلنسية ، وكان ألفونسو قد دعا ردريق قبل ذلك للانضمام إليه ومعاونة النصرى في الدفاع عن حصن ليط Alédo ضد المرابطين في غرب الأندلس فلم يستمع له ، فغضب عليه ؛ ومن ثم فقد سار نحوه هذه المرة وهو مجمع القضاء عليه . وتحالف ألفونسو مع جماعات من بحارة ايجونيون والبيشين (أهل بيزا) في الاستيلاء على البلد ، فلم يكن من السيد إلا أن أسرع بقواته إلى أرض قشتالة ومضى يخرب ويقتل وينهب ، فخرّب مدائن نخره وقلعته ولوجرونيو ، فاضطر ألفونسو إلى العودة إلى بلاده ، وعاد السيد إلى سرقسطة يحتفى فيها من جديد^(٢) .

وكان السيد خلال ذلك كله يعتبر بلنسية ملكاً له ، يأخذ منها إتاوة قدرها مائة ألف مثقال من الذهب في العام ويقوم بحماية القادر المنكوب . وكان إذا ترك بلنسية ترك فيها وكيلاً له يسمى ابن الفرج ، كان لا يألو جهداً في استخراج الأموال من الناس ، وقد ضج أهل بلنسية من عسفه وشتموا الطاعة لهذا القادر « ملكها المشؤم » ، كما يقول ابن عذارى ، وكان السيد قد شل يده عن كل شيء ، بل يقول ابن عذارى إنه خلعه وتركه جانباً^(٣) .

Dozy, Recherches, II. p. 115-116

(١)

(٢) ابن الكردبوس : « الاكتفاء في أخبار الخلفاء » ، (مخطوط بمدرسة الدراسات

العربية في مدريد) ، قطعة نشرها دوزى :

Dozy, Recherches, II, appendice II, pp. XIX-XX.

(٣) ابن عذارى : « البيان المغرب » ، ج ٤ . قطعة نشرها ليثي پروفنسال في مجلة

« الأندلس » ، مجلد ١٣ (١٩٤٨) ج ١ ، ص ١٠٩ .

وكان المرابطون قد قرروا - بعد عبور يوسف بن تاشفين الثاني إلى الأندلس - أن يتلافوا أمر شرق الأندلس ، كما سدوا ثغر غربه بانتصار الزلاقة ، فوجهوا قائدهم محمد بن عائشة بقوة احتلت مرسية وجعلتها مركز أعمالها ، ولبثت ترقب الحوادث .

جعفر بن جحاف يتولى أمور بلنسية :

وتسامع أهل بلنسية بوجود القائد المرابطي في مرسية على مقربة من بلنسية ، فأملوا مسيره إليهم ، وكتبوا إليه . ثم انتهزوا فرصة خروج السيد إلى سرقسطة ووثبوا على وكيله وعلى القادر معاً ، وكان يقودهم في ذلك قاضيهم أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف وابن واجب صاحب الأحكام في البلد . فعجل القادر بإرسال بعض عياله إلى حصون نفر من أصدقائه المحاورين لبلنسية ، وهرب بنفسه واختفى في دار أحد أتباعه ، فبحث عنه ابن جحاف وقتله في رمضان من ٤٨٥ هـ / أكتوبر ١٠٩٢ ، وطاف الناس برأسه على عصا في شوارع البلدة^(١) . ووصلت قوة مرابطية يقودها

(١) محمد بن علقمة : « البيان الواضح عن الملم الفادح » ، رواية ابن عذارى : « البيان » ، ج ٤ ، ص ١١٠ .

وابن علقمة هو أبو عبد الله محمد بن خلف بن علقمة ، ولد سنة ١٠٣٦/٤٢٨ - ١٠٣٧ وتوفي ١١١٦/٥٠٩ . كان أديباً نازحاً فائراً ، كتب عن بعض أمراء الطوائف في عصره ، وقد كان في بلنسية أثناء حصار السيد إياها واستيلائه عليها وكتب في ذلك كتاباً فريداً يسمى « البيان الواضح عن الملم الفادح » ضاع أصله ، ولكن الذين ألفوا المدونة العامة الأولى (Primera Cronica General) ، التي نسميها هنا عادة « تاريخ إسبانيا العام » ، ترجموه إلى الإسبانية وضمنوه هذا التاريخ . وقد اكتشف ذلك رينهارت دوزي وبرهن عليه بدلالات من أسلوب الترجمة . ثم عثر ليثي پروفنسال على الجزء الرابع من ابن عذارى ووجد فيه فقرات كاملة من كتاب ابن علقمة ، فقام بمقارنة هذه الفقرات بالنص الإسباني الموجود في المدونة ، وانتهى إلى إثبات نظرية دوزي بصورة قاطعة :

Cf. : Dozy, Recherches, II. pp. 45-46.

Lévi-Provençal, La Toma de Valencia por el Cid. Al-Andalus XIII (1948) fasc. I p. 99-102.

وانظر عن ابن علقمة : الضبي : « بغية الملتبس » ، (طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٨٧) رقم ٥١٤ - حاجي خليفة : « كشف الظنون » ، (طبعة فلوجل) ، ج ٢ ، ص ١٢١ .
Pons Boigues, Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y géógrafos arabigo-espanoles (Madrid, 1898) nu. 140.

قائد يسمى ابن نصر ، فاعتز بها ابن جحاف وأصحابه . وتولى القاضي رئاسة البلدة ، ويبدو أن الغرور ركه بهذا التوفيق الذى وصل إليه ، فأظهر « أبهة الملك ، وطمح بصره إلى قضية القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد ، فما حسن النظر ولا ساعده القدر ، فكان يجلس مكتنفاً بالوزراء والزمعاء ، والغلمة أمامه ، ويركب فيتقدمه العبيد والطرء ، ويتأخر عنه الجند ، وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء (١) » .

ولم تزودنا المراجع بقدر صالح من المعلومات عن جعفر بن جحاف ، ولكننا نفهم منها أنه كان من أسرة تكررت في أفرادها ولاية القضاء ، فقد ولى جده جحاف بن يمن القضاء لعبد الرحمن الناصر واستشهد في غزاة « الخندق » عام ٣٢٧ هـ . / ٩٣٨ (٢) . وكان جعفر « آخر القضاة من بني جحاف » ببلنسية ، وكان له جد آخر تولى القضاء ببلنسية أيضاً هو جعفر بن جحاف بن يمن المتوفى سنة ٣٧٦ هـ . / ٩٨٦ (٣) .

وواضح من كلام ابن علقمة أن العُجب ملك جعفر بن جحاف بعد هذا الذى صنع ، وخيل إليه أنه يستطيع السير في آثار أبي القاسم عباد القاضي الذى ملك إشبيلية وأنشأ لنفسه بها دولة بذكائه ودهائه ، ولكن ابن جحاف لم يكن مؤهلاً لمثل هذا المطلب ، فأساء السياسة و « وقع في هراش ، وتفرقت الطباء على خراش ، ودُفع إلى النظر في أمور سلطانية لم يتقدم قبل [له شأن] في غوامض حقائقها ، وإلى ركوب أساليب سياسية لم يكن له عهد باقتحام مضايقتها ، ولا بالدخول في ضنك مآزقها ، ولم يعلم أن تدبير الأقاليم غير تلقين الخصوم ، وأن عقد ألوية البنود ، غير الترجيح بين العقود وانتحال الشهود » كما يقول ابن بسام (٤) . ولم يلبث أن ملكه الزهو ، فشغل بمظاهر الرياسة عن تدبير أمور بلده ، وصدق فيه قول ابن خلدون : « إن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها (٥) » .

(١) ابن علقمة : المرجع السابق ، ص ١١١ .

(٢) الضبي : « بغية الملئس » ، رقم ٦١٥ .

(٣) ابن القزى : « علماء الأندلس » ، رقم ٣١٧ .

(٤) ابن بسام : « الذخيرة » ، (« أبحاث » دوزى) ، ج ٢ ، ذيل ٢٢٢ ص ١١ .

(٥) « المقدمة » ، (طبعة القاهرة ١٩٣٠) ، فصل ٣٥ ، ص ٤٧٩ .

وكان من الطبيعي أن يغضب رذريق لما حدث ، ولكنه كان رجلاً سياسياً بعيد الغور ، فكتب إلى ابن جحاف يهنته بما فعل ويطلب إليه أزواداً له كانت مختزنة في بلنسية ، فرفض ابن جحاف لأن البلد للأمير المسلمين يوسف بن تاشفين « وتلك الأطعمة انتهبا رجاله^(١) » . فكشف رذريق عن وجهه وأقبل يحاصر البلد ، وأقسم ألا يبرحه حتى يظفر بابن جحاف ، وتذرع بأنه يطلب ثأر القادر بن ذى النون ، واستجلب أمداداً كثيرة من الحصون المحاورة ، « واتصل الضرب منها إلى بلنسية فأضر بها وقتل من ظفر به من أهلها ، وكان معه جملة من رجال ابن ذى النون^(٢) » . وأرسل المرابطون إلى بلنسية مدداً جديداً بلغ به عدد فرسان ابن جحاف ثلاثمائة ، فزاد وثوقاً من أمر نفسه ، وبدأت المناوشات بين رذريق وبين أهل بلنسية .

وأراد القاضي ابن جحاف أن يكون سياسياً ، فكان في هذا حفته ! أراد أن يخلص من المرابطين جملة ليستبد بالبلد وحده ، ولج رذريق منه هذا الطمع ، فأكد له أنه معه فيه ، وأيده في طرد المرابطين . وأجس أهل بلنسية بذلك ، فراجعوا قاضيه في الأمر ، ووقع الخلاف بينهم وبينه ، فسجن بعضهم ، وفيهم الأديب أبو عبد الرحمن بن طاهر ، فكتب في سجنه كتاباً يصف فيه الأمر لأحد أصحابه . وقد نشر ابن بسام هذا الخطاب في « ذخيرته » ، فكان هذا الخطاب هو مفتاح معرفتنا لحياة رذريق وأعماله وكارثة بلنسية على يديه ، وقد نشر دوزى ذلك النص سنة ٨٤١ ، وكان الناس قبل ذلك يحسبون أن السيد شخصية أسطورية ، فلما نشر دوزى هذه القطعة من « الذخيرة » مع قطع أخرى من « الاكتفاء في تاريخ الخلفاء » لابن الكردبوس ومن « الحلة السيرة » لابن الأبار ، أعاد الناس النظر فيما بين أيدينا من أخبار السيد في « اليريميرا كرونيكا خينيرال » وغيرها ، وكتب دوزى مقاله المشهور :

Le Cid d'après des nouveaux documents,

وانتقل السيد إلى ميدان التاريخ من ذلك الحين^(٣) .

(١) ابن علقمة ، ص ١١١ .

(٢) ابن علقمة ، ص ١١١ .

(٣)

بدء محاولات المرابطين لنجدة بلنسية :

وفي سنة ٤٨٦ هـ . / ١٠٩٣ م . استجاب المرابطون لنداء أهل بلنسية ، وتحركت منهم جموع نحوها ، وأمر يوسف بن تاشفين رجاله وقواده بالتوجه إلى البلد ، فتجمعت جموعهم في « شاطبة » لتسير منها إلى بلنسية . واستبشر أهل البلد وزاد دفاعهم عن بلدهم ، والسيد في أثناء ذلك ينزل أشد أنواع التعذيب بمن عساه يقع في يده من البلنسيين ، ويشدد الحصار عليهم حتى بدأت المجاعة تضربهم . وكان - ككل أهل عصره - يؤمن بعبادة الطير ، وكان يقول لأصحابه إن طيوره تبشر بأن البلد له ، « يضيف إلى ذلك مخرفة من كذبه يقوى بها نفوس أصحابه (١) » ، كما يقول ابن علقمة ، فقال أحد أهل بلنسية ساخراً من رذريق وطيوره :

قولوا للذريق إن الحق قد ظهر
أو فقدوه إذا ما طيره زجرا
سيوف صنهاجة في كل معترك
تأبى لأطياره أن تصدق الخبرا
و « سيوف صنهاجة » إشارة إلى المرابطين الذين كان البلنسيون ينتظرون قدومهم من يوم لآخر .

وكان يقود للقوات الذاهبة إلى بلنسية الأمير أبو بكر بن إبراهيم اللمتوني ابن أخي يوسف بن تاشفين . وكانت جموعه عظيمة ، وكان مستطيعاً استنقاذ البلد وأهله لو أنه جد في المسير ، ولكنه تلكأ لسبب غير معروف . وأدرك رذريق على أهل بلنسية غضب جعله يخرج عن المألوف في حروب تلك الأيام ، وأرهب البلد وأهله رهبة شديدة تعجلاً لتسليمهم ، وأدركه الخوف من مفاجأة المرابطين إياه فبعث يستنجد بالفونسو السادس . واقترب المرابطون من بلنسية وتراعت لأهلها طلائع الإنقاذ ، وهنا نفاجأ بأمر لا زلنا نبعث له عن تعليل دون جدوى : فإن أبا بكر بن إبراهيم اللمتوني أوى عنانه وهو بمرأى من البلد وعاد أدراجه نحو مرسية ! ولو أن يوسف بن تاشفين لم يكتب إليه بعد ذلك يؤنبه على ذلك التخاذل ، ويوجه إليه أقسى الألفاظ ، لعلنا انصرفه بأمر يوسف إياه ، ولكننا نجد يوسف يذهب في

غضبه عليه إلى حد عزله عن ولايته . وكان تصرف القائد المرابطى على هذا النحو سبب ضياع بلنسية بعد ذلك^(١)

ردزريق يحاصر بلنسية :

ونستطيع أن نتصور شعور ردزريق وهو يرى المرابطين ومن معهم يحجمون عن اللقاء على هذا النحو الغريب ، ونستطيع كذلك أن نتصور خيبة آمال البلنسيين وهم يرون أنفسهم يقعون بين يدى جلادهم ولا مهرب . وكان من الطبيعى أن يزداد كسلب ردزريق على البلد ، « فأقام يحجى الرعية ويوجه المغيرة » ، ويمنع الدخول إلى المدينة ، ويعيث فى فل الفار عنها ، ومن تحرك من قريته أو شعر بحركته يستعبد أهله وولده ، فلم يقدم أحد على التحرك ، ولا حدث نفسه بالتحول^(٢) .

« وأيقن أهل بلنسية بالملكة ، وغلب على الناس اليأس ، وضاعت النفوس ، وزاد حقد العدو وقسا قلبه ، وهلك أكثر الناس جوعاً وأكلت الجلود والدواب وغير ذلك ، ومن فر من المحلة فقئت عيناه أو قطعت يده أو دقت ساقاه أو قتل ، فرضى الناس بالموت فى المدينة ، وزادت هذه الأزمة على أزمة طليطلة أضعافاً ، لانفساح مدة الحصار ، وتضاعف حقد العدو ، لصبرهم وطلبهم النصر^(٣) » .

(١) ابن علقمة : « البيان الواضح » ، ص ١١٢ - ١١٣ .

وقد جاء فى « المدونة العامة الأولى » أن القائد المرابطى كتب من دانية إلى بنى واجب فى بلنسية كتاباً يمل فيه انصرافه بقله الأزواد معه وهطول الأمطار وتدافع السيول مما جعل مسير الجيوش عسيراً ، فلم يكن له بد من العودة إلى مرسية ، ووعدهم فى الخطاب بأنه راجع إلى بلنسية لغوث أهلها فى القريب .

Cf. : Prim. Cron. Gen. pp. 575a-576b.

(٢) نفس المصدر والصفحة .

وقال ابن بسام : « وقوى طمع ردزريق فى ملك بلنسية ، فلزمها ملازمة الغريم ، وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم ، [ومضى] ينتسف أقواتها ويقتل حاتها ، ويسوق إليها كل منية ، ويطلع عليها من كل ثنية وبلغ الجهد بأهلها والامتجان ، أن أحلوا محرم الحيوان ، وأبو أحمد المذكور فى أنشودة ماسهل وسنى ، وشرك ماجر على نفسه وجنى » . « أنجاش » دوزى ، ذيل ٢٢ ،

ص ١٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٤ .

واستبسل أهل بلنسية استبسالا يعتبر مثالا عالياً في الشهامة والحفاظ وبذل النفس في سبيل حياض الوطن . وقد وصف لنا محمد بن علقمة في كتابه « البيان الواضح عن الملم الفادح » أصناف ما قاسى أهل بلنسية من الأهوال أثناء هذا الحصار ، وصور لنا حالة بلنسية على صورة تفتت الأكباد^(١) ، ويكفى أن نقول إن تاريخ المسلمين لم يعرف حصاراً بلغ المحاصرين فيه مثل هذا الحد من الجهد والتلف دون أن يستسلموا ، وأن تاريخ الحروب لم يدون لقائد من القواد من القسوة وتحجر القلب والبعد عن الرحمة كما سجل لردريق أثناء حصاره بلنسية . ومهما التمسنا له من الأعذار من ظروفه أو من روح العصر ، فإننا لا يمكننا أن نصف ما فعله ببلنسية وأهلها إلا أنه إجرام مروع رهيب .

(١) قال ابن علقمة (ص ١٢١ من « البيان الواضح ») :

« وما امتحن به أهل بلنسية في هذه السنة المؤرخة ، قال محمد بن علقمة : بلغ رطل القمح في ربيع الأول بمشقال ونصف ، ورطل الشعير بمشقال ، ورطل زريعة الكتان ستة أثمان مشقال ، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم ، وأوقية البصل بدرهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وبيضة دجاجة بثلاثة دراهم ، ورطل اللحم البغلي بستة دنانير ، ورطل الجلد البقرى بخمسة دراهم .

« وفي ربيع الثاني [الأول : ms] عظم البلاد ، وتضاعف الغلاء ، واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء . فأمر ابن جحاف اقتحام الدور فحاصاً عن القوت . وأعاد ابن جحاف استصراخ ابن هود ورغبه في المال والبلد ، مع الأجر في استنقاذ المسلمين من القتل والأسر . « وانسلخ هذا الشهر ، ورطل القمح بثلاثة مثاقيل غير ربع ، وما سواه تابع له . ولا يصل إلى إدراك شيء من الموجود إلا أهل الجاه ، وترمق سائر الناس بالجلود والأصماغ وعروق السوس ، ومن دون هؤلاء بالفيرة والقطط وجيف بني آدم . وهجم على نصراني وقع في الحفير ، فأخذ باليد ووزع لحمه .

وجد الطاغية في حرق من خرج من المدينة إلى الحلة ، لثلا يخرج الضمفاء ، ويتوفر القوت على الأغنياء . فهان على الناس الإحراق بالنار ، فعيث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم من صوامع الأرباض وبواسق الأشجار .

« ودخل جحادي الأولى وعدمت الأقوات بالحملة وهلك الناس ، ولم يبق من ذلك اللحم إلا نزر يسير . وتوالى اليبس واستحکم الوباء ، وبينما الرجل يمشى ، سقط ميتاً . ولم يبق ما يدب على أربع إلا اثنان لابن جحاف وابنه ، واثنان لابن رقيير . وباع ابن رقيير فرسه من الجزائرين بمائتي مشقال ، واستثنى منه عشرة أرطال فبيع الرطل منه أوله بعشرة دنانير وآخره باثني عشر ديناراً ، ورأسه بخمسة عشر مثقالاً » .

أحوال بلنسية أثناء الحصار :

وكان القاضي جعفر بن جحاف رئيس البلد يرقب ذلك في جزع بالغ ، وقد أفلت الزمام من يده وتهاوت آماله في قرب مجيء المرابطين لعودته ، وكان ليوسف بن تاشفين رأى طيب فيه ، وكان يرجو إنقاذ بلنسية من بلائها ، لولا كثرة مشاغله . وأراد القاضي التخفيف من شدة المجاعة ، « فأمر باقتحام الدور فحصا عن القوت » وعاد يستصرخ سليمان بن هود ، « ورغبة في المال والبلد مع الأجر في استنقاذ المسلمين من القتل والأسر » (١) ، فلم يجده ذلك كثيراً . وتخرج مركزه ، وكان قد ترك مقاليد الأمور لأصحابه بني واجب ، ويبدو أنهم لم يكونوا أحسن منه تدبيراً (٢) ، فازداد مركزه ضعفاً ، وبدأ نفر من أهل البلد يتحدث في التسليم ، وكان على رأس هؤلاء شيخ مسن من أجلاء أهل البلد ، هو أبو الوليد الوقشي (٣) ، ورجل آخر من أهلها يسمى ابن عبدوس .

كان أبو الوليد هشام بن أحمد بن خالد الكنانى - المعروف بالوقشي لأنه ولد ببليدة وقشس - من كبار علماء عصره ، وكان قد ضرب في كل معارف أهل عصره بسهم وافر ، وكانت سنة إذ ذاك تقارب الرابعة والسبعين لأنه ولد سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ، وكان في بلنسية أثناء حصارها . وتذكر « المدونة العامة الأولى » أنه لم يكن راضياً عن جعفر بن جحاف ، وأنه نصحه كثيراً بالاعتدال والتسليم ، وجرت بينهما مناقشات كثيرة ، والتف حوله نفر من أهل البلد ، فغضب عليهم ابن جحاف وأراد أذاهم (٤) ، فسعى في الاتصال برذريق ، ويبدو أن هذا هو ما أشار إليه ابن بشكوال في ترجمته للوقشي حينما قال : « وقد نسبت إليه أشياء الله أعلم بحقيقتها ، وسائله عنها ومجازيه

(١) ابن علقمة : نفس المصدر ، ص ١٢٢ .

Prim. Cron. Gen. 576a-579a.

(٢) ابن علقمة : القطعة المترجمة في

R.M. Pidal, La Espana del Cid, II p. 493.

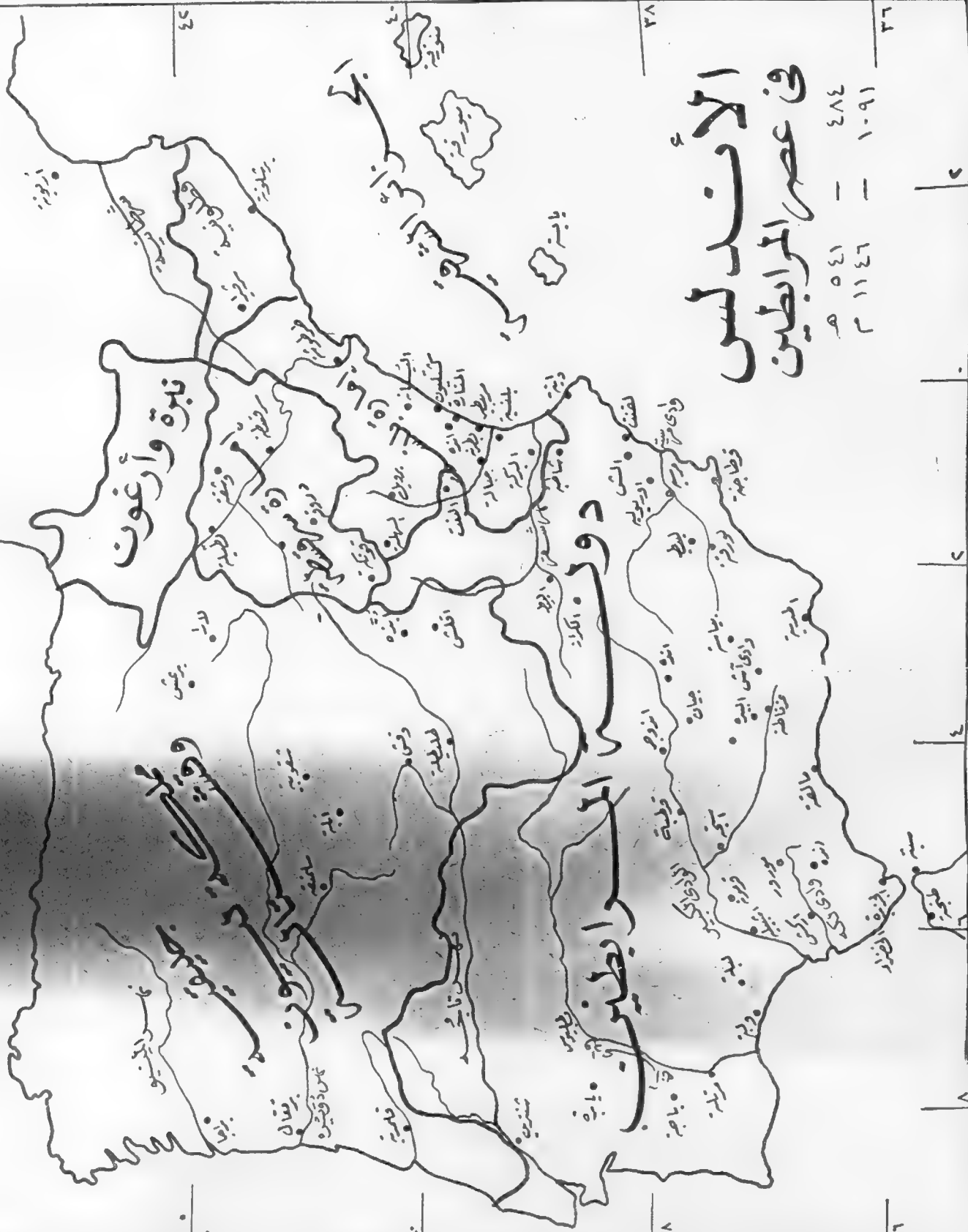
(٣)

Op. cit. p. 493.

(٤)

في عصر المرابطين

١٠٩١ - ٤٨٤
١١٤٦ - ٥٤١ هـ



بها (١) ، وكان من معارضى ابن جحاف كذلك الأديب المعروف أبو عبد الرحمن بن طاهر ، فأودعه ابن جحاف السجن (٢) على ما ذكرناه .
 بيد أن طول الحصار وتوالى الحن أقنع جعفر بن جحاف بضرورة التسليم ، فبدأ له أن يبعث لرذريق رسلا ليرى إذا كان من الممكن أن ينصرف عن البلد لقاء إتاوة كبيرة ، فاعترض على ذلك نفر ممن كانوا لا يزالون يؤملون في مدد المرابطين - وفي مقدمتهم بنو واجب ورئيسهم أبو الحسن بن واجب ، صاحب الأحكام في البلد - فعزله ابن جحاف عن الأحكام . وعاد الرسل يقولون إن رذريق يشترط إخراج بنى واجب من البلد قبل البدء في أى تفاهم ، وأحس أبو الحسن بن واجب أن ابن جحاف يريد إخراجهم ففر من بيته ، فأرسل ابن جحاف نفراً من الجند تعقبوه حتى عثروا عليه ، ثم أخرجوه مع أهل بيته وأنصاره أجمعين وأسلموهم لرذريق ورجاله فقتلوهم (٣) . وبأن ذلك المرابطين فتغيرت نفوسهم على ابن جحاف ، وأنكر أهل بلنسية منه ذلك ، فزاد مركزه سوءاً ، ولم يبق له إلا يخرج واحد من « الأنشوجة » ، كما يقول ابن بسام : هو أن يتفاهم مع رذريق على إسلام البلد له .

وسعى ابن جحاف في استرضاء رذريق ، فطلب إليه هذا أن يسمح له بالتزول في قصور كانت لابن عبد العزيز صاحب بلنسية الأسبق ، وكانت خارج البلد ، فنزل له ابن جحاف عنها . واحتوى عليها السيد ، فزاد غضب البلنسيين على رئيسهم ، وزاد غضبهم أن رذريق لم يذكر هذه اليد لابن جحاف ، فأمر رجاله بعد أيام بهدم القنطرة الجميلة التي كانت تقوم على نهر بلنسية ، وكانت من محاسن البلد ومواقع فخر أهله ، فهدمت بحجة منع المرابطين من استعمالها إذا قصدوا البلد . فاشتد حنق الناس على ابن جحاف ، وخافوا أن يسلمهم قاضيه لعدوهم ، فتكلموا في عزله ، فخافهم

(١) الضبي : « بغية الملتمس » ، رقم ١٤٣٦ .

ابن بشكوال : « الصلة » ، رقم ١٣٢٣ . وقد توفى الوقفى بدانية يوم الإثنين

٢٨ جمادى الآخرة سنة ٤٨٩ هـ .

(٢) انظر عن أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر : ابن خاقان : « الثلاثه » ، ص ٦٤ .

Prim. Cron. Gen. cap. 914, pp. 5836 sqq.

(٣) ابن علقمة :

على نفسه ، وجعل يتعقب رؤوس الفتنة عليهم بالسجن والأذى (١).
وفي أثناء هذه المحنة القاسية نظم أبو الوليد الوقشي قصيدة طويلة يصف
فيها مصاب بلنسية ، وقد ضمها ابن علقمة كتابه الآنف الذكر ، وترجمها
معاونو ألفونسو العاشر المعروف بالعالم فيما ترجموا من كتاب ابن علقمة ،
وجعلوها ضمن نص « المدونة العامة الأولى » وزعموا أن الوقشي صعد على
أسوار بلنسية وأنشدها . وقد أعجب بعض ناسخي « المدونة » بها وأراد أن
يتعرف نصها العربي ، فلجأ إلى رجل يعرف بعض ألفاظ من العربية -
يذهب بعضهم إلى أنه يهودى وبعضهم الآخر إلى أنه من أهل مراکش -
فكتب تحت كل كلمة من ترجمتها الإسبانية لفظاً عربياً يقابله ، ورسمه
بمحروف لاتينية ، ولهذا وصلتنا بعض نسخ « المدونة » وهذه القصيدة مدونة
فيها بهذا النص العربي مكتوباً بمحروف لاتينية كلها تحريف وتصحيف ،
ولا زال هذا النص الذى يعرف « بمراثية الوقشي لبلنسية » من المشاكل
اللغوية التى تحير الباحثين (٢).

Prim. Cron. Gen. p. 5736 sqq.

(٤) ابن علقمة :

Prim. Cron. Gen. pp. 576a-579a.

(٢) وردت الترجمة الإسبانية لمراثية الوقشي في :

أما ترجمتها الحرفية إلى العربية - مكتوبة بمحروف لاتينية - فقد وردت في ثلاث نسخ من
« المدونة » نشرها مننذ بيدال :

Cf. : R.M. Pidal, Sobre Aluacaxi y la elegia árabe de Valencia. Homenaje a Codera
(Madrid 1904) pp. 392-403.

وانظر رأى خيلان ريبيرا في المراثية في نفس المصدر ، ص ٤٠٣ وما بعدها . وسأكتفى ببيت
واحد من هذه المراثية كنموذج لهذا النص الغريب ، وسأضع بعد كل بيت نصه العربي كما رسمه
ريبيرا وأتبعه بترجمة لما يقابله من الترجمة الإسبانية التى وردت في المدونة :

1. Valencia Valencia gayt eleic quezra quebira

كبيرة كسرة عليك جاءت بلنسية بلنسية

Antafi hauch hantumunic fe ynquem yechtum

يكون ؟ كان إن ف موتك حانت وقت فى أنت

Cagidach anteflet mejujede yecon agaban

عجباً يكون هذا من ؟ تفلت أن قدرك ؟ (قدراك)

que bulimen yeric

يريك لمن كبيراً ؟

بلنسية ، بلنسية ، توات عليك ويلات كثيرة ، وقد حان حينك

فإذا قدر الله لك النجاة من هذا البلاء ، لكان ذلك أمراً عجبياً لمن يراك .

وطال صمود البلنسيين للحصار ، وبلغ الغضب بالسيد مبلغاً جاوز به الحد في القسوة على من ظفر به من المسلمين خارج البلد . قال ابن الكردبوس : « وانقطع إلى القنبيطور وغيره من أشرار المسلمين وأرذالهم وفجارهم وفسادهم ومن يعمل بأعمالهم خلق كثير ، وتسمى « بالدوائر » فكانوا يشنون على المسلمين الغارات ويكشفون الحرمات ، يقتلون الرجال ويسلبون الأطفال ، وكثير منهم ارتد عن الإسلام ونبذ شريعة النبي (صلعم) إلى أن انتهى بينهم للمسلم الأسير بنجزة وقدح خمر ورطل حوت ، ومن لم يُنفذ نفسه قطع لسانه وفقت أجفانه وسلطت عليه الكلاب الضارية فأخذته أخذة رابية (١) .

وأراد رذريق أن يتعجل تسليم البلد ، فنع من يريد الخروج من مبارحتها حتى تزداد المجاعة إلى داخلها استحكاماً . قال ابن علقمة : « وجد الطاغية في حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ، لئلا يخرج الضعفاء ، ويتوفر القوت على الأغنياء ، فهان على الناس الإحراق بالنار ، فعيث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم من صوامع الأرباض وبواسق الأشجار (٢) » .

ومن الغريب أن مؤرخ السيد « منندذ بيدال » تصدى للدفاع عن هذه الفضاءات كلها ، فزعم أنها من أساليب الحرب المشروعة ، ومضى يخبط خبطاً غريباً يأسف له كل منصف ، ثم زعم أن الذين كانوا يفعلون ذلك كله هم المسلمون من حلفاء السيد والعاملين في معسكره وحدهم ، مما لا يؤيده فيه نص واحد من « المدونة » أو غيرها (٣) .

رذريق يدخل بلنسية :

وأخيراً ، وبعد أن بلغ الجهد بالبلنسيين مداه ، وانقطع أملهم في الغوث

= والقصيدة على درجة كبيرة من الأهمية لما فيها من وصف بلنسية وما كان فيها من جليل المباني ، وما كان يحيط بها من سور عظيم ذي أبراج أيام سعدا ، وما كان أهلها يتمتعون به من رياض وخيرات ، وما كانوا يتمتعون به من الخروج إلى المنازة على ضفاف النهر وعند القنطرة .

(١) ابن الكردبوس : « الاكتفاء » ، في « أبحاث » دوزي ، ج ٢ ، ذيل ٢٧ ،

ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٢ .

(٣)

R.M. Pidal, op. cit. pp. 507-508.

وانظر رأي دوزي في ذلك كله في ختام المقال .

من أية ناحية ، اتفقوا على التسليم ، وأخذ القاضي ابن جحاف على رذريق
أوثق العهود ألا يؤذى أهل البلد في أنفسهم وأموالهم . وفي جمادى الأولى سنة
٤٨٧ هـ / مايو - يونيو ١٠٩٤ م . دخل السيد بلنسية ، واستهل أمره
فيها استهلالاً طيباً ، فجمع أهل البلد وخطب فيهم خطبة احتفظت لنا
« البريميرا كرونيكا » بترجمتها الإسبانية - إذ الغالب أن السيد ألقاها بعربية
أهل الأندلس - قال فيها : « إني رجل لم يملك قبل ذلك مملكة أبداً ، ولم
يكن ذلك لأحد من أسلافي ، ولكن اليوم الذي رأيت فيه هذه البلدة
أعجبني ورغبت فيها ، وسألت الله أن يملكني إياها ، وها أنتم ترون الآن
قدرة الله الذي تفضل وأعطاني بلنسية . وعندما قدمت لحصار بلدة جباله
Juballa لم أكن أملك إلا أربعة أرغفة من الخبز ، فأولاني الله من فضله
ما ملكني به بلنسية وجعلني سيدها . فإذا أنا سرت بالعدل ومضيت بالأمور
في طريق حسن فسيتركها لي الله ، وأما إذا أنا ملكني الكبرياء والخسة وأسأت
السيرة ، فأنا أعلم حق العلم أن الله سيسلبني إياها . وعلى هذا فليرجع كل
منكم إلى ما كان بيده ولينض فيه كما كان قبلاً ، ومن وجد منكم حقله أو
كرمه خالياً فليدخله ، ومن وجد حقله مزروعاً فليدفع لزارعه أجره وما أنفقه فيه
وليستعد ملكه إياه على ما تقضى به شريعة الإسلام ، وعلى القائمين بحماية
أموال البلد ألا يأخذوا من الناس أكثر من العشر ، كما تقضى به شريعتكم » .
ثم قال بعد ذلك : « وقد قررت أن أقعد لسماح ظلاماتكم يومين في الأسبوع :
الاثنين والخميس ، وإذا وجد أحد منكم نفسه مظلوماً فليأتني أي يوم أراد ،
فسيجدني سميعاً . ذلك لأنني لا أنفق وقتي مع النساء أو على الشراب وسماح
الغناء كما يفعل أصحاب الأمر فيكم ، أولئك الذين لم تكونوا تستطيعون رؤيتهم
إذا مست حاجتكم إلى ذلك : إني أريد أن أسمع بنفسي أقضيتكم ،
وأريد أن أكون لكم رفيقاً ، أحميكم كما يحمي الصديق صديقه والقريب
قريبه ، أريد أن أكون قاضيتكم الذي يفصل في خصوماتكم ووزيركم الذي
ينفذ الأحكام ، ومهما وقع بينكم من منازعات وخصومات فسأقضي بينكم
بالحق » . واستطرد في أشباه ذلك الكلام ، ثم عرج على ابن جحاف فقال :
« وقد بلغني أن ابن جحاف عدا على بعضكم وظلمه ، وأنه سلب بعضكم
أمواله ليهديها إليّ ، وأنه فعل مثل ذلك بمن كانوا يبيعون الخبز للناس بسعر فاحش

أثناء الحصار ، ولم أكن أنا راغباً في أن تهدي إلى هذه الأموال ، ولو أردتها لأخذتها بنفسى دون أن ألقأ إليه في تحصيلها ، لم أرغب فيها لأن الله لا يرضى أن أغضب أحداً ماله دون حق ، وهو يبارك لمن يحسن البيع ويعامل من معه بالحق . وعلى هذا ، فن أخذ منه ابن جحاف شيئاً فليطالبه به ، وقد أمرت بأن يرد إليكم كل شيء ... هل رأيتم الأموال التي أخذتها من الرسل الذين ذهبوا إلى مرسية ؟ لقد كانت هذه الأموال حقاً لى ، فقد غنمتها عن حرب وفزت بها من قوم حثوا فيما اتفقوا معى عليه ، ومع أننى أخذت هذا المال بوجه حق ، فإننى أمرت الآن بأن يرد لى أصحابه إلى آخر درهم فلا يضيع عليهم منه كثير أو قليل » . ثم قال : « وإنى أمر بالأى يؤسر مسلم أو مسلمة فى بلنسية ، وإذا خالف أحد ذلك فأطلقوا الأسير بالقوة واقتلوا أسره . . . » . وقال بعد ذلك : « ولا أريد دخول بلدكم ولا المقام فيها ، وإنما سأخذ لى عند « القنطرة » منزلاً أقيم فيه إذا مست بى الضرورة إلى المقام^(١) » . وهذا الكلام من رذريق يدل على مهارة سياسية كبرى ، وعلى علم دقيق بأنظمة المسلمين . وقد ذهب منذذ بيدال داعية السيد إلى أنه يدل على تأصل نوازع العدالة فى نفسه^(٢) ، ولكننا سنرى بعد قليل أنه لى بلى للبلنسيين بشىء مما وعد ؛ ولكنه ، على أى حال ، كسب ود المسلمين من أهل بلنسية وأمن روعهم بهذا الكلام . ونلاحظ أنه أراد أن يثبت للبلنسيين أنه خير من أمراء الطوائف الذين يحتجبون عن الناس ، ولا يردون المظالم ، وينفقون أوقاتهم فى ملاذ أنفسهم . ودلت خطبته من أول الأمر على نيته نحو جعفر ابن جحاف ، فقد مهد بكلامه الطريق لانتهامه ، وزعم أنه لم يطلب إليه أموالاً ، مع أنه كان يعصره اعتصاراً ، وقد جاء معظم بلاء الرجل من اشتداده فى جمع الأموال ليؤديها إتاوات لرذريق حتى يرد طمعه ، وسيرى البلنسيون عما قريب أنه لم يكن صادقاً فى قوله إنه لم يكن طامعاً فى المال . وأما إشارته إلى

Prim. Cron. Gen. 588a-590a

(١) ابن علقمة فى

وقد أورد لنا ابن علقمة معظم خطاب رذريق فى أهل بلنسية فى فصل كامل فى الصفحات

المبينة أعلاه ، وعنوانه :
918. Capitulo de como el Çid entro en la noble cidat de Valencia et de muchas et muy nobles razones que ouo con los moros.

R. Menéndez Pidal, op. cit. II, p. 638.

رد أموال رسل مرسية فتدل على ذكاء ، لأن رسل مرسية كانوا رسل المرابطين ، فكأنما رمى رذريق من وراء ذلك إلى إلهام المرابطين وأنصارهم أنه يريد أن يصادقهم ويعيش معهم في أمان ، ولم يكن صادقاً في كذلك أيضاً .

شرق الأندلس نهب للفوضى :

دخل رذريق بلنسية في جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ . / فبراير ١٠٩٤ وقضى الفترة الأولى يمهّد أمرها لنفسه ، وقد أحسن السيرة أول الأمر « فلم يعمل هو وأصحابه - لعنهم الله - ما يسوء المدينة وأهلها بحال من الأحوال ، فانتشطت الأنفس من عقاب ، وانبسطت الآمال وأمن الناس ، وهو مع ذلك يراعى أمرهم ويمنعهم من الخروج من المدينة^(١) » . أما منعه الناس من الخروج من المدينة ، فقد دفعه إليه خوفه من أن يتصلوا بالمرابطين ، ويدل كذلك على أنه كان ينظر إليهم كفريسة وقعت في يده أو أسرى صاروا إليه بهذا أصبح رذريق أميراً على بلد إسلامي ، ولسنا نجد تكييفاً للملكة إياها ، فهو نفسه لم يكن « دولة » لها كيان ونظام ، وإنما كان قائد جماعة من الجنود ، ولم يكن جنده هيئة لها كيان ، وإنما كانوا أخلاطاً من كل صنف ، فيهم القشتالي والليوني والمسلم والنصراني . قال ابن الكردبوس في وصف رجال رذريق : « وكان دخوله إياها (بلنسية) سنة ٤٨٧ . وفي هذه المدة انقطع إلى الكنبيطور وغيره ، من أشرار المسلمين وأرذالهم وفجارهم وفساقهم ، ومن يعمل بأعمالهم خلق كثير ، وتسمى « بالدوائر » ، فكانوا يشنون على المسلمين الغارات ، ويكشفون الحرمات ، يقتلون الرجال ، ويسلبون النساء والأطفال ، وكثير منهم ارتد عن الإسلام ، ونبد شريعة النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بنجزة وقدر خمر ورطل حوت ، ومن لم يفد نفسه قطع لسانه وفقت أجفانه وسلطت عليه الكلاب الضارية فأخذته أخذة رابية^(٢) » . وهذه ليست هيئة قوة محترمة تؤمن على أمور الناس ، ولم يكن رذريق كذلك داخلاً في نطاق دولة كبيرة يعمل لحسابها ، وإنما كان يعمل لحساب نفسه ،

(١) ابن علقمة : نفس المصدر ، ص ١١٤ .

(٢) ابن الكردبوس : « الاكتفاء » ، « أبحاث » دوزي ، ج ٢ ، ذيل ٢٣ ، ص ٢١ .

ولهذا فنحن لا نجد تكييفاً صحيحاً له أو لنظامه الذى أقامه فى بلنسية وما حولها .
 بيد أن شرق الأندلس كله كان قد صار إلى فوضى شاملة لا تجعل
 قيام رذريق فيه بهذا الدور أمراً غريباً ، فقد كان قد تقسم نواحيه طائفة
 كبيرة من صغار المستبدين ، اعتمد كل منهم على قطعة صغيرة من الفرسان
 وأقام لنفسه دويلة فى بلد أو حصن ، من أمثال تأييد الدولة صاحب لاردة ،
 وسيد الدولة صاحب طرطوشة ، وحسام الدولة صاحب شنت برية ، ونظام الدولة
 صاحب ألبونت ، وحسام الدولة بن رزين صاحب السهلة ، وابن طاهر صاحب
 مرسية (١) ، وكلهم عفاة نهazon فرضوا سلطانهم على نواحيهم . وأصدق
 تكييف لرذريق فى وضعه الجديد هو أنه أصبح أمير طوائف هو الآخر ،
 استبد بناحية بلنسية ، أميراً لطائفة نصرانية ، وهو فى ذاته أمر طريف فى
 ذلك العصر الحاوى لكل طريف غريب فى الأندلس . ولا يختلف
 مركز رذريق فى بلنسية عن مركز معن بن صمادح فى المرية ، أو مركز
 منذر بن يحيى التجيبى فى سرقسطة ، إلا أنه كان أقوى وأقدر . وكان رذريق
 يشعر بذلك ، ولذلك أحب أن يتقوى باجتذاب أهل بلنسية ناحيته حتى
 تقوى بذلك « طائفته » ، كما رأينا من خطابه .

ولم يكن بشرق الأندلس من الهيئات ذات الكيان الثابت إلا دولة
 بنى هود فى سرقسطة ونواحيها ، وقوة المرابطين فى مرسية وشناطبة ودانية وإمارة
 برشلونة النصرانية . فأما بنو هود ، فقد كانوا إمارة طوائف ذات قوة وكيان ،
 وقد أسعدها الحظ بثلاثة أمراء على جانب كبير من القدرة هم أحمد بن سليمان
 الملقب بالمقتدر بالله (٤٤١ / ١٠٥٠ - ٤٧٤ / ١٠٨١) الذى وحد
 الإمارة وعقد أحلافاً مع جيرانه النصارى ، مما أعان دولته على البقاء ، ويوسف
 ابنه الملقب بالمؤمن (٤٧٤ / ١٠٨١ - ٤٧٦ / ١٠٨٣) وهو الذى لجأ
 إليه رذريق أول أمره فاستخدمه وانتفع بمواهبه ، إذ وجهه لحرب رامس
 بيرنجوير الثانى كُند قطلونية ، وكان طامعاً فى سرقسطة ، فكسب له
 انتصار « المائة » على هذا الكند القطلونى ، وقام بجايته من مطامع ألفونسو
 السادس ؛ ثم أحمد بن يوسف المؤمن ولقبه المستعين (٤٧٨ / ١٠٨٥ -

٥٠١ / ١١٠٨) وكان أمهر الثلاثة وأقدرهم على الحفاظ على إمارته ، وقد استمر على مصانعة رذريق واستخدامه بين الحين والحين ، وتمكن من هزيمة قوات ألفونسو السادس أكثر من مرة بفضل حلفه مع هذا الفارس القشتالي ، وقد استمر هذا الحلف طوال أيام المستعين فسلمت إمارة سرقسطة من شره ، وتمكن المستعين كذلك من كسب ود يوسف بن تاشفين وتأييده ، فلم يعزله كما عزل غيره من أمراء الطوائف ، وكتب إليه خطاب أمان حفظته لنا الراجع^(١). وكان هم المستعين المحافظة على أراضيه ، فلم يفكر في غوث بلنسية رغم استصراخ أهلها به ، لأن بلاءها كان على يد رذريق حليفه ونصيره^(٢).

أصل لفظ « السيد » :

وإلى خدمة رذريق الطويلة لبني هود ترجع تسميته بالسيد ، لأن بني هود أمروه على جيشهم ، فكان أفرادهم ينادونه « بيا سيدى » ، وقلدهم في ذلك جندهم من النصارى ، فصاروا يخاطبونه بميوثيد Mio Cid أى ياسيدى ، فلزمت هذه التسمية من ذلك الحين واشتهر بها في التاريخ . أما المرابطون فقد كان مركزهم قوياً في الجزء الجنوبي من شرق الأندلس حتى مرسية ، وكانت أعظم مراكزهم شاطبة ودانية ، وكانوا يودون استنقاذ شرق الأندلس من السيد وغيره من عفاة قواد النصارى ، ولكنهم شغلوا عن ذلك بمدافعة ألفونسو السادس عن وسط الأندلس وغربه . بيد أن سقوط بلنسية في يد السيد وأفاعيل رجاله في نواحيها لم تلبث أن نبهتهم إلى سوء مصير شرق الأندلس إذا هم تركوه على حاله ، فوجهوا همهم كله هذه الناحية ، وأرسلوا القوات إلى مرسية تحت قيادة أبى بكر بن إبراهيم بن تافلويت أخى

(١) انظر : ابن الخطيب : « أعلام الأعلام » ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ . و « الحلل الموشية » ، ص ٦٠ .

(٢) انظر عن تاريخ سرقسطة في ذلك العصر مقالنا « الثغر الأعلى الأندلسى في عصر المرابطين » ، مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد ، مجلد ٧١ ، ج ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ ، ص ٩١ وما يليها .

يوسف بن تاشفين لأمه ، وسيروها نحو بلنسية جادين في الأمر هذه المرة (١) .

وكانت الإشاعات قد طارت بأن ألفونسو سائر لعون السيد ، فحسبه المرابطون قد أتى بالفعل ، فوقع الرعب بين المقاتلين وتفرقت جموعهم في كل ناحية ، وهكذا فشلت هذه المحاولة الثانية وتحولت إلى كارثة جديدة ، وكان ألفونسو قد انتهر الفرصة ناحية غرناطة ومضى يخرب فيها ، فعم البلاء (٢) .

ردريق ينقلب على أهل بلنسية :

وسخط السيد سخطاً شديداً على أهل بلنسية لفرحهم بمقدم المسلمين واشتراك كبارهم في مكتبة المرابطين . فأمر أهل البلد بأن يوافوه إلى القصر ، فذهبوا . وهناك خطبهم خطاباً يخالف كل ما كان قد قاله لهم في خطابه الأول : لم يحدثهم بأنهم أهله وإخوانه ، بل قال إن إخوانه هم جنوده وحدهم ، وأنه لا يهتم إلا براحة أولئك الجنود ، ثم فاجأهم بأمر جديد : طالبهم بأن يسلموه ابن جحاف وأهله وكل من له ضلع مع المرابطين ، وكانوا كثيرين جداً ، فذهل الناس وعلموا أن السيد ينوى بهم كل شر . وأمر السيد ابن عبدوس - مشرفه على المدينة - بأن يأتيه بابن جحاف وأهله وكل من له به صلة .

وقد احتفظ لنا مصنفو « المدونة » بفقرات طوال من خطاب السيد هذا ، ووصفوا لنا ذعر البانسيين بعد أن سمعوه (٣) ، وقد أوجز ذلك ابن عذارى فيما أوجز من كتاب ابن علقمة ، قال : « ثم رجع (السيد) إلى المدينة ، فشئ برئحته باجتماع المسلمين إلى القصر ، ثم خرج عليهم ، ونظر إليهم ، وعرض بذكر المرابطين وكثرتهم ، وأن ذلك ما أغنى عنهم . وجعل ينظر في عطفه ، ويشمخ بأنفه ، ثم قال : « انظروا لي في سبعة ألف مثقال وإلا هلكتم ، وأحلت السيوف عليكم » ، ثم خرج وبقي المسلمون في القصر ،

(١) ابن أبي زرع : « روض القرطاس » ، ص ١٠٤ .

(٢) ابن علقمة : نفس المصدر ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٣) ابن علقمة : Prim. Cron. Gen. cap. 919, p. 590 .

وأغلق عليهم الباب ، فصاروا في سجن ، والروم تحفهم بالأسلحة ،
 فرأوا الموت ، ووقع البهت ، وخرست الألسنة (١) .
 وكان السيد قد أقام للبلد تجارياً يسمى ابن الفرج من يهود بلنسية ،
 وكان يلقب بالوزير ، وكان معناه في مصطلح الإدارة الأندلسية في ذلك
 الحين عامل الخراج . وكان عنيماً في أساليبه مع أهل البلد من المسلمين ،
 ولكنه كان على أى حال يخفف من وطأة السيد عليهم . قال ابن عذارى
 بعد ذلك : « ثم رجع اليهودى وزيره إليهم وقال لهم : « لم أزل ألاحظه حتى
 قاطعته عليكم بمائتي ألف مثقال ، فبادروا بتوزيعها ، وافدوا أنفسكم منه »
 فتوزع العدد على الأحوال ، واشتد ثقاف الأغنياء . وبلغ اليهودى - لعنه
 الله ! - من المسلمين مبلغ الغاية في العذاب ، وسلط اليهود على الإسلام ؛
 فبلغوا النهاية في النكال والنكاية ، ومنهم الأمناء الموكلون ، والمتصرفون ،
 وأصحاب الرسوم ، وخدام البر والبحر . وجلس اليهودى للقبض بصاحب
 المدينة من الضرب بالعصا والسوط ، وقبض لكل منهم شيطاناً يخرج معه
 كل غدو ، فإن جاء بشيء ، وإلا أخذ بالسوط والعذاب . وتمادت هذه
 المحنة مدة ، فلا قوة إلا بالله العلي العظيم (٢) . »

وفكر السيد في حجة يتعمل بها لقتل جعفر بن جحاف وأصحابه ، وكان
 قد أودعهم السجن . وكان لأول دخوله البلد قد سأل ابن جحاف عن
 أموال القادر « واستحلفه بمحضر جماعة من أهل الملتين على البراءة منها ،
 فأقسم بالله جهد أيمانه ، غافلاً عما في الغيب من بلائه وامتحانه ، وجعل
 ردريق بينه وبين القاضى المذكور عهداً أحضره الطائفتين ، وأشهد عليه أعلام
 الملتين ، إن هو انتهى بعدُ إليها ، وعثر عنده عليها ، ليستحلن إخفار
 ذمه ، وسفك دمه ، فلم ينشب ردريق أن ظهر على الذخيرة المذكورة لديه ،
 لما كان قد حم من إجراء محنته على يديه ، ولعلها كانت حيلة منه أدارها ،
 وداهية من دواهيہ سددها وأثارها ، فأنحى على أمواله بالنهاب ، وعليه وعلى
 أهله بأنواع العذاب ، حتى بلغ جهده ، ويثس مما عنده (٣) . » وقد أكل

(١) ابن علقمة : برواية ابن عذارى ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن علقمة ، برواية ابن عذارى ، ص ١٢٦ .

(٣) ابن بسم : « الذخيرة » ، « أبحاث » دوزى ، ذيل ٢٢ ، ص ١٣ .

لنا ابن علقمة بقية مأساة ابن جحاف وأهله على يد السيد التي تصل بنا إلى ذروة محنة هذا البلد التemis على يد ذلك العنق ، قال : « فلما لم يترك لهم ظاهراً ولا باطناً ، أمر بإضرام النار . وسبق القاضي أبو المطرف يرسف في قيوده ، وأهله وبنوه حوله ، وقد حشر الناس من المسلمين والروم . ثم قال للملأ من المسلمين : « ما جزاء من قتل أميره عندكم في شرعكم ؟ » ، فصمتوا ؛ فقال لهم : « جزاؤه عندنا الإحراق بالنار ! » ، وأمر به وبجملته إلى ذلك الضرم ، وقد لفح الوجوه على المسافة البعيدة . فضج المسلمون والروم ، وتضرعوا إليه في ترك الأطفال والعيال ، إذ لا ذنب لهم ، ولا علم بتلك الأمور عندهم ؛ فأسعف الرعية في رغبتهم بعد جهد ومدة ، وترك النساء والصبية . وحفر للقاضي حفرة ، وأدخل فيها إلى حُجْزَتِه ، وسوى التراب حوله ، وضمت النار إليه . فلما دنت منه ولفحت وجهه ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ! » ثم ضمها إلى جسده . فاحترق ، رحمه الله تعالى ! »

« ولم يكن غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة ، واجتهاده في طلب النصرة ، ودفعه إياه بالمطاوله ، رجاء في استمساك البلدة وإبقاء الكلمة »
 « وعمد الطاغية — لعنه الله ! — بعد إحراق القاضي — رحمه الله ! — إلى الجلة من أهل بلنسية ، فنفقهم وأغرمهم حتى استأصل جميع ما عندهم ، وجعل الناس في المحنة أسوة ، يأخذهم على طبقاتهم : حتى عمته المحنة ، وهلك في ذلك الثقات كثير منهم ، رحمهم الله وجعلها كفارة لهم ! (١) » .
 وما نظن أن حوليات التاريخ تحوى أشنع من هذه الجناية ، فقد بلغ ردريق بها أبشع درجات القسوة وتحجر الفؤاد والبعد عن كل معنى إنساني ، فلم تكن المسألة مجرد إعدام ذلك الشيخ ، بل التلذذ بتعذيبه وحرقه هو وعياله وأهله بالنار على صورة رهيبة تدل على أنه كان في أعماق نفسه وحشاً ضارياً (٢) ، كما قال دوزي . ومع ذلك ، فقد اجتهد منتدذ بيدال في تبرير هذا الفعل الذميم والقول بأن ابن جحاف يستحق هذا العقاب الشنيع ، وأن تصرف السيد على هذا النحو دليل على عدله وإنصافه ومعرفته بالقوانين وتطبيق القوانين (٣) .

(١) ابن علقمة ، برواية ابن عذارى ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

Dozy, Recherches, II. p. 187.

(٢)

R.M. Pidal, op. cit. pp. 553-668.

(٣)

وعاش السيد بعد ذلك في بلنسية عيشة أمير شرقي ذي حول : سكن القصر ، وكان - فيما يقول ابن بسام : « زعموا تدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب ، وطفق يعجب ويتعجب ، وفي بلنسية يومئذ يقول ابن خفاجة :

عائت بساحتك الطيبي يا دار ومحا محاسنك البلي والنار
فإذا تردد في جنبك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار
كثبت يد الحدثان في عرصاتها: لا أنت أنت ولا الديار ديار (١)

عسف رذريق للبلنسيين :

واشتد أذى السيد لأهل بلنسية بعد ذلك ، حتى بان أن مصيرهم إلى الفناء على يديه ، وكان إحراقه ابن جحاف وأبى جعفر البتي ونفر من أهل بلنسية على هذا النحو الذي ذكرناه قد روع المسلمين جميعاً ونبه المرابطين إلى ضرورة استنقاذ البلد قبل أن يخرب تماماً ، وقد صدق مننذ پيدال في قوله : « إن ابن جحاف استطاع بعد موته أن يكون أشد ضرراً على السيد مما كان في حياته ، فإنه أصبح بذلك شهيداً تؤجج روحه حوافر الثورة في المسلمين حوله (٢) » . والواقع أن اشمزاز الناس من هذه الجناية كان عظيماً ، وتحول ابن جحاف في اعتبارهم إلى « شهيد » مات على يد طاغية نصراني ؛ حتى ابن طاهر نفسه ، ألد أعدائه ، ذلك الذي سجنه ابن جحاف وآذاه ، شعر بالألم لمصابه ، وكتب إلى ابن عم له يعزيه فيه ويطنب في مدحه ويستنزل الرحام عليه (٣) .

واطمأن السيد إلى أمره بعد أن قضى على ابن جحاف وكل مناوئيه في البلد ، وأخذ يفكر في توسيع أملاكه ، وترامى بصره إلى الاستيلاء على أكبر الحصون المجاورة لبلنسية وهو حصن مُرْبِيْطَر Murviedro ، بل إلى الاستيلاء على الأندلس كله ، وجعل يقول : « على يد رذريق فتحت هذه الجزيرة ،

(١) ابن بسام : « الذخيرة » ، « أبحاث » دوزي ، ج ٢ ، ذيل ٢٢ ، ص ١١٥ .

R.M. Pidal, op. cit. II. p. 554

(٢)

(٣) ابن بسام : « الذخيرة » ، نفس المرجع ، ص ١٦ - ١٧ .

ورذريق يستنقذها» (١). وعجل يوسف بن تاشفين بإرسال قوة اقتربت من بلنسية ، ولكن السيد تمكن من تشتيت شملها في غير عسر (٢). ثم عاد يوسف بن تاشفين فبعث محمد بن عائشة في قوة كبيرة بلغت عدة رجالها ثلاثين ألفاً عسكرت عند شاطبة ، وعجل السيد ف عقد حلفاً مع پدر وملك أرغون سنة ١٠٩٤ وسارا معاً للقاء المرابطين . ووجد محمد بن عائشة أنه لن يستطيع لقاء هذه القوة ، ففضل الانسحاب من شاطبة ، وعسكر عند تل على مقربة من بلدة بَيْرِين Beiren ، وأراد السيد شحذ عزائم رجاله ، فجعل يتمشى بين صفوفهم يشجعهم ويؤكد لهم أن المسيح سيهبه النصر على المسلمين ، ثم حمل على المرابطين فشتت شمل جيشهم وغنم معسكرهم . وتشجع بعد ذلك وسار نحو مريبطر فحاصرها ، وعبثا حاول أهلها الاستنجاد بالمستعين بن هود والمرابطين ، بل بعثوا يستجدون ألفونسو السادس وكند برشلونة ، فلم يسعفهم أحد . واستولى السيد على قصبة مريبطر في ٢٤ يونيو ١٠٩٨ ، وأنشأ فيها كنيسة رسمها باسم القديس يوحنا . وكان السيد قبل استيلائه على البلد ، أذن أن يخرج من أهله من أراد الخروج ، ثم عاهدهم على ذلك قبل استسلامهم ، وأفلت منهم نفر . فلما استولى عليها فرض على من بقي منهم مالا جسيماً اجتهدوا في جمع ما استطاعوا منه ، فلما أخذ المال أمر بأهل البلد فأخذوا أسارى جميعاً وسيقوا مكبلين إلى معسكره في بلنسية (٣).

وعاد السيد بعد ذلك إلى بلنسية ليم تقمته على أهلها ، فأمر بتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة جامعة ، وأفرغ على تأثيثها أموالاً جليلية واستدعى من فرنسا أسقفاً كلونياً هو Jerome de Périgord وأقامه أسقفاً لبلنسية (٤). وكان يحس دائماً أن المرابطين من ورائه ، فاجتهد في تحصين البلد . واستدعى زوجه خيمينا وبنتيه كريستينا وماريا وزوج البنتين لأميرين نصرانيين ، وأقام أعراساً فاقت في بهجتها ونفقتها أعراس أمراء المسلمين .

(١) ابن بسام : نفس المصدر ، ص ١٤ .

Dozy, Recherches, II. p. 188

(٢)

Dozy, Recherches, II. pp. 193-194.

(٣)

Lévi-Provençal, Le Cid de l'histoire, dans : L'Islam d'Occident, p. 181. (٤)

وفاة رذريق :

وصمم المرابطون آخر الأمر على استعادة البلد ، وأخذت قواتهم تناوش قوات السيد ، وقتلوا ابنه Diego في إحدى المعارك ، وكان ديبجو في التاسعة عشرة من عمره ، فهاضت الكارثة نفس أبيه المغامر الذى لم يعرف مرارة الألم قبل ذلك ، والتحم المرابطون في معركة أخرى مع قوات نصرانية قرب قونكة وقتلوا الفارس البرهانس ، بل هزموا جيشاً للسيد نفسه على مقربة من جزيرة شقر Alcira ، وأراد السيد الانتقام ففاجأ حصن « المنارة » الإسلامى واستولى عليه .

وفى ظلال هزيمة « جزيرة شقر » وفجعة ابنه مات السيد فى يوليو ١٠٩٩ بعد أن ظل سيد بلنسية خمس سنوات ، وأقبلت قوات المرابطين يقودها أعظم قوادهم محمد بن مزدكى ، وشددت الحصار حول بلنسية . وحاولت « خيمينيا » زوج السيد الدفاع عنها فلم تستطع ، وبعثت تستنجد بالفونسو السادس ، فأقبل ورأى قوات المرابطين وتبين ألا فائدة من قتالهم ، فنصح خيمينيا بترك البلد ورجع إلى طليطلة . فلما تبين المحتلون قلة جدوى المقاومة أحرقوا البلد حتى جعلوه كومة رماد ثم خرجوا . ودخل محمد بن مزدكى البلد فى أوائل مايو ١١٠٢ ، وأخذ رجال السيد رفاته معهم ودفنوها فى دير San Pedro de Cardena واعتزلت خيمينيا فى هذا الدير وعاشت بعد زوجها خمس عشرة سنة .

* * *

خاتمة :

تلك هى قصة السيد الكنيطور وعلاقاته بالمسلمين ، حارب فى صفوفهم وعاش معهم وخدمهم وعرف لغتهم ووجد عندهم المأوى أيام نفيه وتشريده ، ثم قسا عليهم ولم يباخر مع ذلك وسعاً فى إيذائهم وتخريب ديارهم وحرقتهم بالنار حينما أمكنته الفرصة فيهم . وذلك فى ذاته أمر يبعث على العجب فى طبيعة ذلك الرجل الذى بدأ بعد موته بقرن يتحول فى نظر الإسبان إلى شخصية أسطورية تتمثل فيها أجمل صفات الإسبانى فى أحسن صورها . ونسج القصاصون والشعراء حول حياته أروع ملاحم البطولة الإسبانية وهى قصيدة السيد

El Poema de Mio Cid ، وجعله « پير كورنى » رمز الشرف والشهامة والواجب . وقضى أكبر علماء إسبانيا المعاصرين - رامون منندز بيدال - نحو عشرين سنة من حياته يتعبد فى محرابه ويجمع أخباره ، وأخرج فى سيرته أكبر عمل تاريخى ظهر فى إسبانيا خلال نصف القرن المنقضى وهو كتاب La Espana del Cid لم يدع فضيلة إلا نحله إياها ، وجعله جماع الخير كله ، والفضل كله ، والإنسانية كلها ، بل جعله طليعة العاملين على وحدة إسبانيا وبعثها ، وأزرى فى هذا السبيل بمعاصر للسيد فعل - من غير شك - أكثر مما فعل السيد فى سبيل إسبانيا النصرانية ، وهو ألفونسو السادس الذى يسمى فى النصوص العربية باسم ابن رديم .

بيد أن منندز بيدال لم يستطع رغم هذا الجهد العظيم أن يححو من أذهان الناس الصورة البشعة التى صور دوزى السيد بها فى مقاله الذى أشرنا إليه ، ولن يستطيع فيما أظن ، لأن الوقائع والشواهد أقوى من البلاغة والتكلف ، والتاريخ - بعد كل شيء - لا يبنى على العواطف . والمسألة - آخر الأمر - تتعلق بحوادث مضى عليها أكثر من عشرة قرون . وأختم هذا الكلام بعبارة طريفة لابن بسام فى السيد ، قال : « وكان هذا البائقة أوحده وقته فى درب شهامته ، واجتماع حزامته ، وتناهى صرامته - آية من آيات ربه إلى أن رماه سريعاً بحتفه ، وأماته بيلنسية حتف أنفه . وكان - لعنه الله - منصور العلم ، مظفراً على طوائف العجم ، لقي زعماءهم مراراً ، كفرنسية المنبوز بالقم المعوج (١) ، ورئيس الإفرنج ، وابن رديم ، فقل حد جنودهم ، وقتل بعدده اليسير كثير عددهم ، وكان - زعموا - تدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب ، وطفق يعجب منها ويتعجب (٢) » .

* * *

(١) كان غربية هذا يوصف بهذا الوصف فى اللغة الإسبانية أيضاً : Bocatuerte

(٢) ابن بسام : « الذخيرة » ، نفس المرجع ، ص ١٤ .

هذا هو المكان الذى يحتله السيد القمبيطور فى تاريخ إسبانيا السياسى وهو - فى واقع الأمر ، ومهما ترخصنا فى التعظيم من شأنه - دور صغير لم يكن له أثر ظاهر فيما تلا ذلك من أحداث التاريخ الإشباني . ولكن السيد يحتل من نفوس الإشبان ، زغم ذلك ، مكاناً لا تدانيه فيه شخصية أخرى : فهو « البطل القوي » ، وهو رمز الرجولة والبطولة والشهامة عند الإشبان .

وقد بدأ السيد يأخذ هذه الهيئة البطلية الأسطورية بعد وفاته بقليل ، فقد أحدثت أعماله ومغامراته دويماً بعيد المدى فى نفوس الإشبان ، وأعان على ذلك أنه ظهر فى فترة الصراع بين قشتالة وليون على السيادة فى أيبيريا ، وتزعم القشتاليين ضد الليونيين . ثم إن أسطورته تكونت بعد ذلك فى فترة بلغ فيها النفوذ الغالى (نسبة إلى غالة ، وهى فرنسا) أقصاه فى إسبانيا عن طريق الفرسان الفرنسيين والرهبان الكلونيين ، الذين كان ملوك إسبانيا يستعينون بهم ويطلقون يدهم فى كل شىء . هذا ، فضلاً عما بسطناه من كفاحه مع المسلمين كفاحاً قومياً دينياً يثير حماس الإشبان . فتجمعت هذه العواطف كلها حول شخص السيد ، ومضى القصاصون والمنشدون ينشئون حوله الأقاصيص والأشعار ، يصورون بها صراع القشتاليين لليونيين وامتيازهم عليهم ، ويصورون فيها تفوق الإشبان على الفرنسيين وظهورهم عليهم فى ميادين الحرب والتزال ، ويصورون بها نزوع إسبان ذلك العصر إلى الحد من سلطان ملوك ليون واستنكارهم للسلطان الفرنسى الكلونى الذى كانوا يشجعونه .

من هنا تكونت - مع الزمن - ذلك الديوان الضخم من الأناشيد والقصائد والملاحم التى تدور حول شخص السيد ، وأهم ما فيه « قصيدة سيدى El Poema de Mio Cid » وهى ملحمة كبيرة ظهرت بعد « ملحمة رولان » بأربعين سنة ، وتشبهها من نواح كثيرة : فكلاهما أنشودة أعمال ووقائع Chanson de Geste ، وكلاهما من الشعر القصصى الشعبى الطويل النفس ، وهما تفقان - جنباً إلى جنب - مع أروع ما لدينا من الملاحم القصصية الكبرى ، كالنيبلونجن ، والبيوولف ، و « موت آرثر » ، والشهامة ؛ وكلها « دواوين شعوب » نسجت

حوادثها وأبياتها أحاسيس الأمم وهى فى مداخل الصبوة والتطلع إلى المغامرات وعظائم الأمور .

* * *

وقد كتب قصيدة السيد شاعر إسباني مجهول الاسم ؛ ولا بد أنه قرأ « ملحمة رولان » وغيرها من « أناشيد الأعمال » الفرنسية واتجهت همته إلى إنشاء قصيدة على غرارها . وقد وجد بين يديه أخباراً كثيرة عن صراع قشتالة مع ليون وما وقع من الحروب بين الفرسان والملوك ، وكلها أخبار مثورة ولكنها شاعرية الروح ، بعضها قصصى صرف مثل قصة برناردو دل كاريو Bernardo del Carpio ، وبعضها يدور حول وقائع تاريخية صحيحة ، وقد وصل إلينا الكثير منها فيما بقى لنا من مدونات التاريخ الإسباني ، (انظر فهرس المراجع) .

ويغاب على الظن أن ناظم هذه الملحمة رجل مستعرب من بلدة « مدينة سالم Medinaceli » ، على الحدود بين مملكة قشتالة وإمارة سرقسطة الإسلامية إذ ذاك ، وقد فرغ منها عام ١١٤٠ م . ، أى بعد وفاة السيد بأربعين عاماً . وهى تشبه « ملحمة رولان » من حيث الصياغة والقالب ، فهى تتألف من أبيات طوال فى كل بيت منها نحو أربعة عشر مقطعاً ، وكل بيت مشطور إلى مصرعين ، والقصيدة كلها مرسلة على هيئة فقرات ، كل فقرة منها على قافية واحدة ، والفقرات غير متساوية الطول . والملحمة كلها تتناول فقرات مختلفة من حياة السيد تبدأ من أيام صباه Mocedades del Cid وتنتهى فى أواخر أيامه ، وتدور حول وقائعه مع صهره كفتى الكريون Los Infantes del Carrion

وقد أثبت رامن منتدذ بيدال أن « قصيدة السيد » تسير الوقائع التاريخية فى معظم الأحوال ، وأن القصاص لم يبالغ إلا فى الحالات التى راقى خياله الشاعرى ، كهذه التفاصيل الكثيرة التى ترد عن بنتى السيد وما وقع لهما مع زوجيهما ، وذلك الإسهاب الذى وصف به حصار سمورة ومقتل الملك شانجة ، وما إلى ذلك .

والقصيدة تصور السيد بطلاً محارباً شجاعاً ، مدار حياته الحصول على الممتلكات « Avers » ، ويراد بها فى القصيدة الأموال والأراضى ، والقصاص

هنا أقرب إلى حقيقة السيد من الاتجاه الحديث في الترجمة له عند الإسبان المعاصرين . ولا يغلب على القصيدة الطابع الديني كما ترى في ملحمة رولان ، فهي لا تدور حول الحرب مع المسلمين ، ولا يصور المسلمون فيها أشراراً أشقياء ، بل مدار الحديث الصراع بين القشتاليين والليونيين وحروب السيد مع أكناد برشلونة . وهذا لا يمنعنا من القول بأن القصيدة تصور السيد مسيحياً صادقاً مخلصاً . وروح القصيدة معتدل رزين ، والسيد يصور فيها رجلاً عادياً يمتاز عن غيره بمزيد من فضائل الشجاعة والذكاء واليقظة والشرف ، وقد رمى القصاص من وراء رسمه على هذا النحو ، إلى تصوير الصراع بين أوساط الناس الذين قامت على أكتافهم إمارة قشتالة ، مع الأغنياء والنبلاء الذين كانوا يؤيدون ليون . والمعروف أن هذه الروح القشتالية ، هي التي انتصرت وسادت إسبانيا وتولت الكفاح الحقيقي مع المسلمين فيما بعد ، وقد أبدع منندذ بيدال في تصوير هذه الناحية في كتابه عن السيد ، وعرف كيف يصور انتقال مركز التوازن في أيبيريا من إسبانيا الغربية الأطلسية *La Espana Atlantica* (جليقية وأشتريس وليون) إلى إسبانيا الشرقية المتوسطية *La Espana Mediterranea* وبين كيف كان هذا الانتقال هو الخطوة الحاسمة في توحيد إسبانيا وميلادها من جديد . والقصيدة تصور شعباً أفضل بكثير مما تصوره قصيدة رولان ، والفضائل التي تنص عليها إنسانية أقرب إلى روح العدالة والمساواة مما نرى في الملاحم الفرنسية المعاصرة لها ، وهي تعتبر — من هذه الناحية — وثيقة هامة من وثائق التاريخ الإسباني .

* * *

وتعطينا « القصيدة » عن حياة فارس بيقار صورة تختلف عن صورته في التاريخ من نواح وتتفق معها في نواح أخرى . وإليك ما تعرضه من جوانب حياته للمقارنة بما أسلفنا من ترجمته :

تبدأ القصة بمشهد خروج السيد إلى المنفى بعد اختلافه مع الملك نتيجة للوشايات التي ألقاها بينهما الكند غرسية أرْدنيذ ، وهي تصف كيف أودع السيد زوجه وبنتيه أحد الأديرة وابتهل إلى الله أن ينسأ في أجله حتى يزوج هاتين البنيتين زوجاً صالحاً ويقضى السنوات الأخيرة من عمره في سلام عائلي .

ثم يتروذ بشيء من المال حصل عليه من يهوديين بُرُغشيين بحيلة بارعة ،
ويبرح أرض قشتالة يحيط به لمة من فرسانه لا يجاوز عددها الثلاثمائة ، وقصد أمير
سرقسطة المسلم ، وعبأ فرسانه ومن انضم إليه من المغامرين على هيئة « ردفة »
من المقاتلين *mesnada* ، ومضى ينوش بلاد جيرانه وينزل بهم الهزيمة
بعد الهزيمة ، وتوالت انتصاراته على أكتاد برشلونه النصرى بصفة خاصة .
وتضخمت ردفته وعظمت قواه ، فلم يلبث أن استغلب بلنسية
وانتزعها من أيدي أصحابها المسلمين ، ثم يستقدم زوجه خيمنة *Ximena*
وبنتيه ليقمن معه في البلد الذي فتحه وأمر نفسه عليه . ويلتقي في أثناء ذلك
بجيش يقوده « يوسف » أمير المرابطين ويتنصر عليه انتصاراً عظيماً . وعلى إثر
هذه الانتصارات رضى الملك ألفونسو عن السيد ، وصفح عنه وعرض أن
يختار لبنتي السيد زوجين من أبناء البيوت الغنية *ricoshombrs* ، واختار فتيين
شقيقين هما ولدا كُنْدُ الكريون ، وكانا من أقارب غرسية أوردونيذ خصم السيد ،
ولكنهما رضيا بالزواج من بنتيه طمعاً في مالهما . وتم الزواج في بلنسية وأقام
الفتيان فيها ، ولكنهما ظلّا يتعلّيان على زوجيهما ويلمزانهما بأصلهما المتواضع ،
فوقع البغض والنفور بين السيد وصهره ، ثم حدث أن انهزما في قتال مع نفر
من المسلمين انهزماً قبيحاً ، فازدراهما رجال السيد ، فتغيرت نفساهما وامتلاّتا
بالحق وأضمرّا الانتقام ، وأعلنا أنهما مزمان العودة إلى قشتالة بزوجيهما ،
ووضيا بهما ، حتى إذا بلغا غابة بلوط عند قرية كوربس *Corpes* في قشتالة
انهالا على زوجيهما ضرباً وسلّباهما كل ما كان معهما وتركاهما في الغابة ووليا
هاربين . وشكا السيد إلى ألفونسو ما فعل الفتيان ببنتيه ، فعقد ألفونسو
محكمة لسماع الشكوى ، وطلب السيد أن يرد الفتيان إليه سيفين قيمين كانا
قد سرقاهما ، فأجابته المحكمة إلى ما أراد ؛ ثم طلب رد بائنتي بنتيه ، فأجابه
القضاة إلى ذلك أيضاً ؛ ثم طلب أن تأذن له المحكمة في الانتصاف لشرفه
بمبارزة الفتيين ، حسبما تقضى عادات القوط الغربيين القديمة ، فطال الأخذ
والرد حول هذا الطلب . وفي أثناء ذلك أقبل رسل من لدن ملكي نبرة
وأرغون بخطبان بنتي السيد لابنيهما ، فأجابهم ألفونسو إلى ما طلبوا . ثم ثور
المبارزات وانهزم الفتيان انهزماً مخزياً ، وعلى صليل السيوف تنتهى تلك الملحمة
القصصية الطويلة .

أما من الناحية الأدبية ، فتسم القصيدة بعنف وحفاف وبعد عن المحسنات والتزام للطابع الواقعي ، وهى — من هذه الناحية — تقل عن ملحمة رولان ، بل إنها تستعير من تلك الملحمة الفرنسية الكثير من الفقرات التصويرية التى تحتاج إلى خيال بعيد ، غير أن ناظمها وفق — رغم ذلك — إلى ضرب آخر من الجمال لم يوفق فيه تورولد Turolد ناظم ملحمة رولان . والسيد يصور لنا فى معامع المعارك رجلاً أيداً يتوسط رجاله والدم يسيل على ذراعه دون أن يحفل له ، وقد غطى وجهه بمغفر من الزرد almofar ، فإذا حى الوطيس نزع مغفره عن رأسه وأشار إشارة الهجوم ، وما هى إلا جولة حتى يكون النصر المؤزر . ومن أمثلة هذه الفقرة التى تصور جانباً من معركة أبداع تصوير :

Embraçan los escudós	—	delant los coraçones
abaxan los lancas	—	abuelas de los pendones
enclinaron las caras	—	de suso de los arzones
iban los ferir	—	de fuertes coraçones.
A grandes voces llama	—	el que en buen ora nacio :
"Feridlos caballeros	—	por amor del Criador !
Yo so Roy Diaz, el Cid de Bivar		Campeador !"

وترجمتها :

وحملوها دون قلوبهم	أمسكوا بدروعهم
المدلاة بالحمايل	ونخضوا حراهم
على سروحهم	ومالوا بوجوههم
بقلوب قوية	واستعدوا ليضربوا
ذلك الذى ولد فى ساعة سعد	وفى صوت عال نادى
حجاً فى الخالق	[وقال :] اضربوهم أيها الفرسان
مقاتل يبقار	أنا روى دياذ السيد
وأجل ما فى القصيدة — كما قلنا — هو تصوير نفور صغار الناس من	

الاستبداد ورغبتهم في الخلاص منه . والسيد - هنا - يصور لنا نزوعاً اجتماعياً .
وما أطف قول صاحب القصيدة ، عقب ذكره لنفي السيد من بلاط ألفونسو :

Dios que buen vasallo, si oviesse buen sonor

يا إلهي ! ما كان أعظمه من تابع لو أنه وجد سيدياً حسناً

وهذا البيت يكاد يوجز فكرة القصيدة كلها ، بالضبط كما أوجز تورولد
فكرة ملحمة رولان بقوله :

Païen unt tort e chrestiens unt dreit

الكفار على ضلال والنصارى على صواب

المراجع

مراجع عربية :

ابن الأبار القضاعى ، أبو عبد الله : « الحلة السراء » - نشر دوزى القطعة الخاصة بابن طاهر - ومنها الكلام على السيد - فى « أبحاثه » ج ٢ ، ملحق ٢ ، ص ٢٧ - ٢٩ .

- « التكملة » - طبعة مدريد ١٨٨٧ . انظر الترجمة رقم ٥١٤ ، ص ١٤٦ . ابن بسام ، أبو الحسن على الشترينى : « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » قطعة كبيرة عن السيد ، جعلها ابن بسام ضمن مادته عن ابن طاهر فى القسم الرابع الخاص بشرق الأندلس . وقد كتب ابن بسام هذه القطعة فى إشبيلية سنة ٥٠٣ - ١١٠٩ ، أى بعد وفاة السيد بعشر سنوات فقط ، وهى لهذا من أهم ما لدينا عنه ؛ وقد نشرها دوزى فى « أبحاثه » :

DOZY, *Récherches*, II. opp. 1 pp. IV - XVIII.

مع ترجمة فرنسية وتعليقات ضافية

السيوطى : « بغية الوعاة » - انظر : ترجمة أحمد بن عبد المولى البلبسى البتّى ، أبى جعفر .

الضبى : « بغية الملتمس » طبعة كوديرا ، مدريد . انظر مادة أحمد بن عبد المولى البتّى ، أبى جعفر .

ابن عبد الملك المراكشى : « كتاب الذيل والتكملة لكتّابى الموصول والصلة » . مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، نشر دوزى القطعة الخاصة بابن علقمة وكتابه فى « أبحاثه » ، ج ٢ ملحق ٥ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

ابن عذارى المراكشى ، أبو العباس : « البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب » - ج ٣ ، نشره ليثى پروفنسالى سنة ١٩٣٠ . ثم عثر بعد ذلك على « البيان المغرب » كاملاً ، ووجد فى الجزء الرابع كلاماً كثيراً عن

السيد اعتمد المؤلف فيه على كتاب ابن علقمة ، فنشر منه قطعاً في مقال
عن « استيلاء السيد على بلنسية » في مجلة الأندلس . (انظر في المراجع
الإفرنجية تحت اسم ليثي پروفنسال)

ابن علقمة ، أبو عبد الله محمد بن خلف : (١٠٣٦/٤٢٨ - ١١١٦/٥٠٩)
« البيان الواضح عن الملم الفادح » - ضاع أصل هذا الكتاب ، ووجدنا
قطعاً منه في جزء جديد من « البيان المغرب » لابن عذارى ، (انظر هذا
المرجع) ، ووُجدت قطع كبيرة منه مترجمة إلى الإسبانية في « المدونة العامة
الأولى Pr. Cr. Gen. » (انظرها في المراجع الإفرنجية) ، وعنها نقل راهب
دير القديس پدرو في كاردينيا قطعاً أدخلها مدونته التي نشرها خوان
فيلورادو وجعلها ضمن كتابه المسمى Cronica del Cid ، وهذا
الكتاب هو الذي يسمى الآن « المدونة الخاصة بالسيد Cronica particular
del Cid » انظر المراجع الإفرنجية تحت ليثي پروفنسال .

ابن الكردبوس : « الاكتفاء في أخبار الخلفاء » - مخطوط بمدرسة الدراسات
العربية بمطريق ، ونشر القطعة الخاصة بالسيد منه دوزي في « أبحاثه » ،
ج ٢ ملحق ٢ ، ص ١٨ - ٢٢ .

المقرئ ، أحمد بن محمد : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، وذكر
وزيرها لسان الدين بن الخطيب « طبعة لايدن ١٨٥٦ - ١٨٦١ » ،
انظر الفهرس .

مراجع غير عربية :

- ASCHBACH : *De Cidi historiae fontibus*. Bonnae, 1843.
BRIZ, FRAY JUAN : *Historia de San Juan de la Pena*. Zaragoza, 1620.
CIROT, G. *Le vrai Cid* apud *Bulletin Hispanique*, XLI (1939).
DOZY, REINHART : *Le Cid d'après des nouveaux textes. dans Recherches
sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge*. (3^oéd.
Layade 1881) vol. II. pp. 1-243, et les appendices I-VI.
FRANCISCO DE BERGANZA : *Antigüedades de Espana*. 1719.

Gesta de Roderici Campidocti (= *Carmen latina*)

cf : R.M. Pidal, op. cit. II pp. 915 Sqq.

Historia Roderici. cf : Risco, *Espana Sagrada*, XXXV. Madrid 1786

— R.M. PIDAL, *Espana del Cid*, II. pp. 901 Sqq.

HUBER : *Gesch. des Cid*, 1829.

HURTADO, JUAN — J. DE LA SERNA — ANGEL GONZALEZ

PALENCIA : *Historia de la literatura Espanola* (6^aed.) Madrid 1949.

LEVI-PROVENCAL, E. : *Observations sur le texte du Bayan d'Ibn 'Idari*
apud *Mélanges Gauthier* — *Demombynes* (Le Caire 1937) pp. 241 Sq.

— *La toma de Valencia por el Cid apud Al-Andalus*. vol. XIII, fasc. i, 1948.

— *Le Cid de l'histoire apud Islam d'Occident* (Paris 1948) pp. 154-185.

MASDEU : *Historia critica de Espana y de la cultura espanola*. t. XX, 1805

MENÉNDEZ PELAYO : *Antologia de poetas liricos*, tomo XI, 1903.

MULLER, JOHAN : *Der Cid nach den Quellen*. Frankfurt a. Main, 1805.

EL POEMA DE MIO CÍD ed. R.M. PIDAL. 2e. ed. Madrid 1948.

PRIMERA CRONICA GENERAL.

أمر بتأليفها ألفونسو العاشر المعروف بالعالم ، ونشرها رامون منندز بيدال في
مدريد ١٩٠٦ .

PRUDENCIO DE SANDOVAL : *Historia de los cinco reyes*. Pamplona
1615.

PUYOL, JULIO : *El Cid de Dozy* in *Revue Hispanique*. XXII, 1910.

QUINTANA : *Vidas de Espanoles Célebres*. 1833.

R. AMADOR DE LOS RIOS : *Burgos*. 1888.

RAMON MENEDEZ PIDAL : *La Espana del Cid*. Madrid 1948.

— *La politica y la reconquista en el siglo XI (Examen de los ultimos escritos
referentes al Cid)* in *Revista de estudios politicos*. No. 35-36 vol.

XIX.

RISCO : *La Castilla y el mas famoso castellano*. Madrid, 1792.

حسين مؤنس